رسائل الإصلاح (١٣)

الشيخ رشيد رضا

والعلمانية .. والصهيونية .. والطائفية

أ. د. محمد عمارة



دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

رسائل الإصلاح (١٣)

الشيخ رشيد رضا

والعلمانية .. والصهيونية .. والطائفية

تأليف

أ. د. محمد عمارة

دار السلام

للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس المحتويات

* * *
* *
*

(١)

بطاقة حياة

• هو « السيد » محمد رشيد بن علي رضا بن محمد شمس الدين بن محمد بهاء الدين بن منلا علي خليفة القلموني (١٢٨٢ - ١٣٥٤هـ/١٨٦٥ - ١٩٣٥م) نسبة إلى بلدته « القلمون ».. إحدى قرى نواحي « طرابلس » الشام.

• ولقد نزحت أسرته إلى « القلمون » من بغداد - فهو بغدادي الأصل - أما لقب « السيد » - الذي اشتهر به، واعتز به - فلأن أسرته « شريفة »، يرتفع نسبها إلى الإمام الحسين ابن علي بن أبي طالب ﷺ.

• ولد رشيد رضا بقرية « القلمون » في (٢٧ جمادى الأولى سنة ١٢٨٢هـ/١٨ أكتوبر سنة ١٨٦٥م) والمشرق العربي خاضع للدولة العثمانية.. و « طرابلس » الشام ولاية من ولاياتها.

• وفي المحيط المتدين للأسرة بدأ رشيد رضا يتلقى دروس تعاليمه الأولى بقريته، على عادة عصره، فحفظ القرآن الكريم، وأخذ بأسباب التعليم التي تؤهله كي يكون عالمـًا من علماء الإسلام..

• وفي « طرابلس » - عاصمة الولاية - التحق بالمدرسة الوطنية الإسلامية.. كما درس في « بيروت ».. وانتهى به المطاف - بعد

أن درس علوم: القرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف، واللغة العربية، والفقه - إلى نيل شهادة « العالمية » من طرابلس، بعد أن حصَّل ما يشابه علوم الأزهر الشريف في مصر.

• ولقد تتلمذ في تعليمه هذا على نفر من علماء سورية وأدبائها البارزين، مثل: الشيخ حسين الجسر (١٢٦١ - ١٣٢٧هـ/١٨٤٥ - ١٩٠٩م)، والشيخ عبد الغني الرافعي (١٢٣٦ - ١٣٠٨هـ/١٨٢١ - ١٨٩١م).

• ولقد كان تحصيله ثمرة لمنهج دراسته، يغلب عليه الطابع السلفي، الذي يهتم « بالمنقول »، مع فضيلة التدقيق في « الأسانيد »، دينية كانت علوم هذا « المنقول » أو تاريخية.

• ومن الكتب التي طبعت فكره ووجهت سلوكه - في المرحلة الأولى من حياته - كتاب (إحياء علوم الدين) لحجة الإسلام أبي حامد الغزالي (٤٥٠ - ٥٠٥هـ/١٠٥٨ - ١١١١م).. فلقد مال به إلى الزهد، وسلكه في سلك الصوفية، فأصبح واحدًا من « المريدين » في « طريقة النقشبندية » الصوفية الشهيرة..

واشتغل بالوعظ والإرشاد في قريته والقرى المجاورة لها، حتى لقد كانت نزهاته التي يروّح بها عن نفسه في القرى المجاورة مجالاً لعظات يلقيها على الناس، مستعينًا بكتب المواعظ السلفية، من أمثال كتب (الزواجر عن اقتراف الكبائر).

• ولقد تهيأ له في هذه الفترة أن يتدرب على الخطابة الدينية فأجادها.. كما طمح إلى الكتابة، فألف كتابًا عن (الحكمة الشرعية).. ونشر في إحدى الصحف مقالًا طويلًا عن الأخلاق، وكيف أنها هي والوجدان مصدر عمل الإنسان.. كذلك صاغ بعض أفكاره شعرًا منظومًا.

• ولقد تصادف أن ولّت الدولة العثمانية على طرابلس « متصرفًا » كان من أنصار الحرية، هو حسن باشا سامي.. وفي أحد الاجتماعات التي حضرها خطب الشيخ رشيد رضا خطابًا تحدث فيه عن طبقات الأمة، حاكمين ومحكومين، وحبذ أن يكون العمل هو معيار التمايز بين الطبقات.. وهو فكر استاء منه البعض، وخشي عليه أصدقاؤه مغبته.. لكن « المتصرف » التركي أعجب به، فعين الشيخ رشيد - عقب ذلك - عضوًا في « شعبة المعارف » بطرابلس!.

• وفي سنة (١٣١٠هـ/١٨٩٢ - ١٨٩٣م) - وكان الشيخ رشيد في الثامنة والعشرين من عمره - حدث لفكره وسلوكه تحول عظيم.. فبينما هو يقلب الأوراق في مخطوطات والده، إذا به يعثر على بعض أعداد مجلة (العروة الوثقى) التي أصدرها فيلسوف الإسلام وموقظ الشرق جمال الدين الأفغاني (١٢٥٤ - ١٣١٤هـ/١٨٣٨ - ١٨٩٧م) وتلميذه الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده (١٢٦٥ - ١٣٢٣هـ/١٨٤٩ - ١٩٠٥م) من باريس سنة (١٨٨٤م) لسان حال لـ « جمعية

العروة الوثقى ».. والتي توقفت بعد ثمانية عشر عددًا.. فقرأ الشيخ رشيد هذه الأعداد، التي أحدثت مقالاتها في عقله ووجدانه انقلابًا شاملًا.. فأخذ يبحث عن بقية أعداد المجلة، فوجدها كاملة في مكتبة شيخه حسين الجسر، فنسخها، وأكب على مطالعتها وفقهها مرات ومرات، فتغيرت صورة الإسلام في فكره، ومن ثم تغيرت صورة المسلم النموذجي، ورسالته في الحياة.. فلم يعد الإسلام هو زهد (إحياء علوم الدين).. ولم يعد المسلم هو السلفي العاكف على إصلاح العقيدة وحدها.. وإنما تبدى له الإسلام - مع ذلك - الدين الذي يوازن بين الدين والدنيا.. والفرد والمجموع.. والحضارة والشعائر.. والتمدن وتطهير القلوب.. الإسلام المجاهد في سبيل إصلاح دنيا المسلمين، التي هي السبيل لإصلاح أخراهم وسعادتهم فيها!..

• ولقد تحدث الشيخ رشيد عن هذا الانقلاب الذي أحدثته مقالات (العروة الوثقى) في حياته - وهو لما يزل طالبًا للعلم في طرابلس - فقال:

« ... ثم إني رأيت في محفوظات والدي بعض نسخ (العروة الوثقى) فكان كل عدد منها كسلك من الكهرباء، اتصل بي فأحدث في نفسي من الهزة والانفعال والحرارة والاشتعال ما قذف بي من طور إلى طور، ومن حال إلى حال.. كان الأثر الأعظم لتلك المقالات الإصلاحية الإسلامية، ويليه تأثير المقالات السياسية في المسألة المصرية، والذي علمته من نفسي ومن غيري ومن التاريخ أنه

لم يوجد لكلام عربي في هذا العصر ولا في قرون قبله بعض ما كان لها من إصابة موقع الوجدان من القلب، والإقناع من العقل، ولا حد للبلاغة إلا هذا.. »!!.

لقد تعلم من (العروة الوثقى) أن الإسلام ليس روحانيًا أخرويًا فقط، بل هو دين روحاني جسماني؛ أخرويٌّ دنيويٌّ، من مقاصده هداية الإنسان إلى السيادة في الأرض بالحق، ليكون خليفة لله في تقرير المحبة والعدل!.

وهو يمضي مصورًا معالم ذلك الانقلاب الذي حدث له، فيقول:

« ولقد أحدث لي هذا الفهم الجديد في الإسلام رأيًا فوق الذي كنت أراه في إرشاد المسلمين، فقد كان همي قبل ذلك محصورًا في تصحيح عقائد المسلمين، ونهيهم عن المحرمات، وحثهم على الطاعات، وتزهيدهم في الدنيا.. فتعلقت نفسي بعد ذلك بوجوب إرشاد المسلمين عامة إلى المدنية، والمحافظة على ملكهم، ومباراة الأمم العزيزة في العلوم والفنون والصناعات، وجميع مقومات الحياة، فطفقت أستعد لذلك استعدادًا.. ».

• ومنذ ذلك التاريخ، وهذه التحولات في الفكر والتوجهات، تاقت نفسه لإقامة الصلة بينه وبين جمال الدين الأفغاني - الذي كان يعيش يومئذ بالآستانة - والإمام محمد عبده - الذي كان قد عاد من منفاه إلى مصر -.. فكتب الشيخ رشيد إلى

الأفغاني كتابًا بليغًا، امتلأت عباراته بشحنات الإكبار والإعجاب والتمجيد..

ثم سنحت له الفرصة فلقي الشيخ محمد عبده مرتين، لقاءً عابرًا:

المرة الأولى: عندما ذهب الأستاذ الإمام لزيارة « المدرسة الخاتونية » بطرابلس.

والمرة الثانية: عند زيارته لطرابلس، مصطافًا، وبصحبته القانوني المصري البارز أحمد فتحي باشا زغلول (١٢٨٠ - ١٣٣٢هـ/ ١٨٦٣ - ١٩١٤م).

وفي هذين اللقاءين عبر الشيخ رشيد للأستاذ الإمام عن إعجابه به وبالأفغاني، وعن تأثير (العروة الوثقى) في التحول الذي حدث له، وكيف انتقلت به من طور إلى طور، **فأخرجته من قوقعة « التنسك الصوفي » إلى رحاب « الإسلام المصلح » - على نحو ما صنع الأفغاني بالشيخ محمد عبده عندما تقابلا بمصر، في مطلع سبعينيات القرن التاسع عشر!..**

• ولم يفكر الشيخ رشيد في السفر إلى الآستانة ليتتلمذ على الأفغاني.. فلقد كان يعلم أن المناخ هناك - من الناحية الفكرية - قاتل للإبداع والطموح.. وأن الأفغاني - في الآستانة - يحيط به من جواسيس السلطان أكثر مما يحيط به من التلاميذ!.

• فلما توفي الأفغاني سنة (١٣١٤هـ/١٨٩٧م)، توحدت

وجهة الشيخ رشيد، فنشأت لديه فكرة الهجرة إلى مصر، كي يتخذ من الشيخ محمد عبده أستاذًا، وليكون موقعه منه كموقع محمد عبده من جمال الدين!.. فأخذ يعد عدته للسفر، فادخر من أجره عن تحرير « الحجج » و « العقود » نفقات رحلته - كما يقول -.. ثم تسلل إلى إحدى السفن الذاهبة إلى الإسكندرية، فوصلها مساء الجمعة (٨ رجب سنة ١٣١٥هـ/ أول ديسمبر سنة ١٨٩٧م).. ومن الإسكندرية قام برحلة إلى « طنطا »، « فالمنصورة »، « فدمياط »، « فطنطا » - ثانيةً -.. ثم وصل القاهرة يوم السبت (٢٣ رجب سنة ١٣١٥هـ/ ١٨ديسمبر سنة ١٨٩٧م) -.. وفي اليوم التالي - مباشرة - ذهب لزيارة الأستاذ الإمام.

• وفي القاهرة وضع الشيخ رشيد قدمه على طريق تحقيق ما بنفسه من طموحات وآمال.. ووفق عبارته:

« **فلقد كنت أعتقد أن استعدادي كله يبقى ضائعا إذا بقيت في سورية، وأنه لا يمكن أن يظهر هذا الاستعداد بالعمل إلا في مصر، لما فيها من الحرية المفقودة في البلاد العثمانية..** »!

• ولقد كانت عينه - وهو يفكر في تحقيق طموحاته المستقبلية، والدور الذي يتطلع إليه - على ذلك الحدث الذي هز كيانه، وحوّل اتجاهه، وهيأ له الاكتشاف الصادق لحقيقة الإسلام - حدث (العروة الوثقى) - فهو يريد إصدار مجلة تحل محل (العروة) وتواصل رسالتها.. وتحمل هذا الإسلام

الشامل ورسالته الإصلاحية إلى عالم الإسلام والمسلمين.

وإذا كانت (العروة الوثقى) قد جاءت ثمرة لصحبة محمد عبده للأفغاني، وتتلمذه عليه، ورسالته له .. فلتكن (المنار) - وهي المجلة التي يطمح في إصدارها - هي (العروة الوثقى) الجديدة، وليكن هو « ترجمان أفكار » الأستاذ الإمام.. فلا بد للإصلاح من زعيم تثق به الأمة.. وهو الآن محمد عبده، ولا بد لهذا الإصلاح من « ترجمان » فليكن هو هذا الترجمان.. ولتكن (المنار) هي الامتداد الجديد، والمتطور (للعروة الوثقى).

• وفي لقائه بالأستاذ الإمام - في (٦ شعبان سنة ١٣١٥هـ/ ٣١ ديسمبر سنة ١٨٩٧م) - عرض عليه مشروعه - مشروع إصدار مجلة (المنار) - فبارك الأستاذ الإمام، بعد أن استوثق أن المجلة « ستبحث في موضوع مرض الأمة وضعفها، وفي معالجتها بالتربية والتعليم ونشر الأفكار الصحيحة لمقاومة الجهل والأفكار الفاسدة التي فشت، كالجبر والخرافات.. » وأن لدى صاحب المشروع - الشيخ رشيد - القدرة المالية على الإنفاق عليه عامًا أو عامين حتى يستقر ويجلب الأرباح التي تضمن له الاستمرار.. وفي هذا اللقاء قال الأستاذ الإمام للشيخ رشيد:

- إن كان هذا فهو حسن، وهذا أشرف الأعمال وأفضلها. وأنا إذا كنت على ثقة من مشرب هذه الجريدة فإني أساعدها بكل جهدي.

فأجابه الشيخ رشيد:

- إني أعاهدكم على أن أكون معكم كالمريد مع أستاذه - على نحو مما يقول الصوفية - ولكني أحفظ لنفسي شيئًا واحدًا أخالفهم فيه، وهو: أن أسأل عن حكمة ما لا أعقله، ولا أقبل إلا ما أفهمه، ولا أفعل إلا ما أعتقد فائدته.

فقال له الإمام:

- هذا ضروري لا بد منه!

• وفي لقاء تالٍ - في (٦ شعبان ١٣١٥هـ/٦ يناير ١٨٩٨م) - طلب الأستاذ الإمام من الشيخ رشيد:

١ - أن لا تتحيز الجريدة لحزب من الأحزاب.

٢ - ولا تهتم بالرد على ذامّ أو منتقد.

٣ - ولا تخدم أحدًا ممن يسميهم الناس « كبراء »... تستخدميهم نعم.. لكنها لا تكون في خدمتهم!

فوافق الشيخ رشيد على ما طلب الأستاذ الإمام:

• وفي (٢٢ شوال سنة ١٣١٥هـ/١٧ مارس سنة ١٨٩٨م) صدر العدد الأول من جريدة (المنار) لتواصل رسالة (العروة الوثقى) مع مراعاة الزمان والمكان والظروف والملابسات.. ومع مراعاة تميز منهج الأستاذ الإمام في أولويات الإصلاح عن منهاج أستاذه الأفغاني في هذه الأولويات.. صدرت (المنار) لتركز على الإصلاح الديني.. وربط الشريعة بالواقع المتطور..

وتطهير العقيدة من الخرافات.. وتحرير العقل من الجمود والتقليد.. وعقد المصالحة بين الدين والعلم.. والعقل والنقل.. والإسلام والتمدن.. إلخ.. إلخ..

ولقد بلغت - في ذلك - على امتداد عمرها، الذي امتد حتى وفاة الشيخ رشيد سنة (١٣٥٤هـ/١٩٣٥م)، ما لم يبلغه منبر إسلامي شهدته الأمة في ذلك التاريخ.. فكانت، بحق، « ترجمان أفكار » الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده.. أي المنار لأعظم تيارات التجديد الإسلامي في العصر الحديث.. وكانت « المشكاة » التي أضاءت من خلالها أنوار العبقرية التجديدية للشيخ محمد عبده.. ولولاها لخبت في عقل هذا الرجل نيرانه وأنواره على حد سواء..

فتَفَضْلُ الشيخ رشيد يتعدى حدود التعبير عن حركة التجديد التي مثلها الإمام محمد عبده، إلى الإسهام في قدح زناد هذا الفكر المجدد للإمام، وتفجير ينابيعه، وتهيئة السبل والمناسبات وخلق الدواعي لاستمرار تدفقه.. هذا إلى الإسهام الجاد والخلاق في هذا التجديد.. ثم - وهذا هام جدًا - حمل هذا الفكر التجديدي والإصلاحي إلى سائر أنحاء العالم الإسلامي على امتداد ما يقرب من أربعين عامًا!..

وعن مكانة الشيخ رشيد من فكر الأستاذ الإمام.. يقول الأستاذ:

« إن الله بعث إلي بهذا الشاب ليكون مددًا لحياتي، ومزيدًا

في عصري. إن في نفسي أمورًا كثيرة أريد أن أقولها أو أكتبها للأمة، وقد ابتليت بما يشغلني عنها، وهو - [رشيد رضا] - يقوم ببيانها الآن كما أعتقد وأريد، وإذا ذكرت له موضوعًا ليكتب فيه، فإنه يكتبه كما أحب. ويقول ما كنت أريد أن أقول، وإذا قلت له شيئًا مجملاً بسطه بما أرتضيه من البيان والتفصيل، فهو يتم ما بدأت ويفصّل ما أجملت »!

• ولقد كان طبيعيًا أن يحارب « المنار » معارك الأستاذ الإمام ضد خصومه.. وأن تصيب صاحبه السهام المصوبة إلى الأستاذ الإمام.. حتى لقد حاول هؤلاء الخصوم التفريق بين الرجلين، فلما فشلوا هموا بإخراج الشيخ رشيد من مصر، وأوعزوا إلى الدولة العثمانية أن تستدعيه بحجة أنه متخلف عن تأدية الخدمة العسكرية!!.. وكادوا ينجحون لولا أن أثبت الرجل بالوثائق أنه قد تمتع بالإعفاء من الجندية لطلبه العلم أولاً، ثم لبلوغه مرتبة العلماء المشتغلين بتدريس العلم بعد ذلك!.

• وعندما حانت منية الأستاذ الإمام سنة (١٣٢٣هـ/ ١٩٠٥م)، كانت قد رسخت في الأذهان حقيقة سلم بها الجميع، وهي أن مكانة الشيخ رشيد من الأستاذ الإمام هي مكانة الإمام من أستاذه الأفغاني.. وأنه هو رأس حركة الإصلاح الإسلامي بعده، وأبرز تلاميذه العاملين في هذا الميدان.. بل لقد عبر الأستاذ الإمام - تلميحًا - عن هذه الحقيقة في الأبيات التي نظمها وهو على فراش الموت، عندما صور رسالته الإصلاحية

ومكان الشيخ رشيد، باعتباره « مرشدًا رشيدًا »، يأمل الأستاذ الإمام أن يواصل السير بعده على طريق الإصلاح الديني والإحياء الإسلامي، الذي مثلته هذه المدرسة الإحيائية في عصرنا الحديث.. عبر الأستاذ الإمام عن ذلك، فقال:

« ولست أبالي أن يقال محمدٌ
أبلّ أو اكتظت عليه المآتم
ولكن دينًا قد أردت صلاحه
أُحاذر أن تقضي عليه العمائم
وللناس آمال يُرجّون نيلها
إذا مِتُّ ماتت واضمحلت عزائم
فيا رب إن قدرت رُجعى قريبة
إلى عالم الأرواح وانفض خاتم
فبارك على الإسلام وارزقه مرشدًا
رشيدًا يضيء النهج والليل قاتم
يماثلني نطقًا وعلمًا وحكمة
ويشبه مني السيف، والسيف صارم »!

• وبعد وفاة الأستاذ الإمام، مضى الشيخ رشيد ناهضًا بالريادة في ميدان الإصلاح الديني.. وكانت علاقاته قد توطدت وتوثقت بتلاميذ الإمام محمد عبده من أقطاب الفكر

والصحافة والسياسة بمصر، وأيضًا بكوكبة من أبرز الزعماء والمفكرين والمصلحين العرب والمسلمين الذين اتخذوا مصر موطنًا لنضالهم بعد أن لجأوا إلى الهجرة فرارًا من اضطهاد آل عثمان - بالمشرق - أو الاستعمار الفرنسي - بالمغرب -

• لكن انفراد الشيخ رشيد بالعمل في الحقل الإسلامي - بعد وفاة الأستاذ الإمام - قد طبع فكره وممارساته بقسمتين لم تكونا ملحوظتين عندما كان يعمل في ظل شخصية الشيخ محمد عبده وفكره:

١ - فالتكوين السلفي النصوصي المبكر للشيخ رشيد، والذي يهتم « بالمنقول » أكثر من « المعقول »، والذي كان قد توارى فترة صحبته للأستاذ الإمام، قد عاد إلى البروز مرة أخرى!.. ولقد ظهر ذلك في الأجزاء التي فسرها من القرآن الكريم، مواصلاً تفسير أستاذه الإمام.. لقد غلبت « الرواية » على « الدراية ».. وغلب « المنقول » على « المعقول » في تفسير هذه الأجزاء.. وإن ظل للعقل مكان ملحوظ في عطائه.

٢ - كذلك زاد انغماس الشيخ رشيد - بعد رحيل أستاذه - في السياسة والعمل السياسي.. فأفاض في معالجة علاقات العرب والأتراك.. والمسألة الشرقية.. والتدخل الاستعماري الغربي في الشرق العربي والإسلامي.. كما كان في طليعة الذين أبصروا خطر المشروع الصهيوني على فلسطين والعرب والمسلمين.

وفي الممارسة السياسية، وجدناه قطبًا من أقطاب (حزب اللامركزية) الذي تألف من مجاهدي الشرق العربي لإبراز الكيان العربي في الإطار العثماني، وهو الحزب الذي تألف بالقاهرة (١٣٣٠هـ/١٩١٢م).. ووجدنا العلاقات الوثيقة بينه وبين حركة الشريف حسين بن علي (١٢٧٢ - ١٣٥٠هـ/ ١٨٥٦ - ١٩٣١م) لتأسيس دولة عربية مستقلة عن العثمانيين.. حتى لقد ذهب إلى سورية عندما أعلن أهلها استقلالها تحت حكم الملك فيصل بن الحسين (١٣٠٠ - ١٣٥٢هـ/١٨٨٣ - ١٩٣٣م)، وانتخب رئيسًا للمؤتمر السوري فيها، ولم يغادرها إلا عندما أجهض الاحتلال الفرنسي هذا الكيان العربي (١٣٣٨هـ/١٩٢٠م).

• كذلك، وجدنا الشيخ رشيد، داعية من دعاة الإصلاح الدستوري للدولة العثمانية، يزور الشام، ويخطب للإصلاح من فوق منبر الجامع الأموي بدمشق، عقب إعلان الدستور العثماني (١٣٢٦هـ/١٩٠٨م)، حتى لقد فجرت خطبته الصراع بين أعداء الإصلاح وأنصاره، الأمر الذي اضطره إلى العودة إلى مصر!

• كما رأينا رحلاته إلى الحجاز، والعراق، والهند، وثيقة الصلة بالإصلاح السياسي ممزوجًا بالإصلاح الديني.

• وذلك غير رحلته إلى حج بيت الله الحرام (١٣٣٤هـ/ ١٩١٦م).

• ناهيك بعلاقاته الوثيقة بالحركة الوهابية، وزعيمها الملك عبد العزيز آل سعود (١٢٩٧ - ١٣٧٢هـ/١٨٨٠ - ١٩٥٣م).. وكتابه (الوهابيون والحجاز) شهيد وشاهد على هذه العلاقات.

• لقد برز الطابع السياسي في دعوته الإصلاحية، وأخذت السياسة الدولية، بصراعاتها وتوازناتها، وتوازنات قواها، تجد لها مكانًا بارزًا على صفحات (المنار).. من الثورة البلشفية إلى المسألة الليبية!.. مرورًا بالهند ومراكش والحجاز.. إلخ.. إلخ.. وهو طابع لم يكن بهذا الوضوح على عهد صحبته للأستاذ الإمام.. بل إن الشيخ رشيد يكتب عن هذا التحول في افتتاحية المجلد الثاني عشر من (المنار) (١٣٢٧هـ/١٩٠٩م) - أي بعد أربع سنوات من وفاة الأستاذ الإمام - فيقول:

« سالمنا السياسة فساورت وواثبت! وأسلسنا لها فجمحت وتقحمت! وكنا نهمُّ بها في بعض الأحيان، فيصدف بها عنا الأستاذ الإمام! ولم ننل منها ما نهواه إلا بعد أن اصطفاه الله » !!..

• وإذا كان التراجع الجزئي من الشيخ رشيد عن « المعقول » إلى « المنقول » وعن « الدراية » إلى « الرواية » - بعد حياة الأستاذ الإمام - مما يحسب عليه.. فإن تزايد الاهتمام عنده بالسياسة هو مما يحسب له.. لأنه كان في ذلك مستجيبًا لتزايد حدة التحديات السياسية التي نزلت بالعرب والمسلمين بعد

حياة الأستاذ الإمام.. وتزايد مخاطر العلمانية والتنصير والإلحاد على حركة الإصلاح الإسلامي، تبعًا لتزايد التغريب والغزو الفكري المصاحب لعموم بلوى الاستعمار لعالم الإسلام.

• وإذا كان (المنار) قد ظل الميدان الأول لفروسية رشيد رضا الفكرية ـ فإن مؤلفاته وتحقيقاته قد كانت ميادين أخرى، هامة ونافعة لهذه الفروسية الفكرية. ومن هذه الآثار الفكرية النفيسة لهذا الإمام الجليل:

(تفسير المنار) في اثني عشر مجلدًا، فسر فيها اثني عشر جزءًا من القرآن الكريم.. وضمنه تفسير الإمام محمد عبده لما فسر من القرآن..

و (تاريخ الأستاذ الإمام) – في ثلاثة مجلدات –.. و (الوحي المحمدي).. و (شبهات النصارى وحجج الإسلام).. و (عقيدة الصلب والفداء).. و (المسلمون والقبط والمؤتمر المصري).. و (محاورات المصلح والمقلد).. و (الوهابيون والحجاز).. و (ذكرى المولد النبوي).. و (الخلافة.. أو الإمامة العظمى).. و (نداء للجنس اللطيف) و (يسر الإسلام وأصول التشريع).

• كما أشرف على طبع الآثار الفكرية للأستاذ الإمام.. وأعاد – في (المنار) – نشر أغلب مقالات (العروة الوثقى).

• وكذلك أشرف على تحقيق العديد من الكتب التراثية

المتميزة، مواصلاً بذلك جهود لجنة إحياء الكتب العربية - التي كونها أستاذه الإمام محمد عبده - من مثل كتب: (تفسير ابن كثير) و (تفسير البغوي) و (العلم الشامخ في إيثار الحق على الآباء والمشايخ) للمقبلي، و (شرح عقيدة السفاريني) لابن قدامة، و (المغني في شرح مختصر الخرقي) و (دلائل الإعجاز) للجرجاني، و (إنجيل برنابا)... إلخ... إلخ.

• لقد امتدت حياة هذا الإمام الكبير ثلاثة وثمانين عامًا.. منها خمسون عامًا امتلأت بالفكر والممارسة على طريق الإصلاح، وخاصة منذ أن جاء إلى مصر، وصحب أستاذه الإمام محمد عبده.

• حتى إذا حان الأجل، لبَّت نفسه الزكية نداء بارئها. في حادث سيارة، كانت عائدة به من مدينة السويس إلى القاهرة، ففاضت روحه في [٢٣ جمادى الأولى سنة ١٣٦٥هـ/ ٢٥ أبريل سنة ١٩٣٥م].. وذلك بعد أن أدت حق الله ورسوله ﷺ في تجديد الدين، وطلب القوة والمنعة والسعادة للإسلام والمسلمين، وذلك حتى تتحقق « للإنسان السيادة في الأرض بالحق، ليكون خليفة لله في تقرير المحبة والعدل.. ولينهض المسلمون ليحافظوا على ملكهم، متسلحين بالمدنية، مسابقين الأمم العزيزة في العلوم والفنون والصناعات وجميع مقومات الحياة ».

فذلك هو الإسلام.. كما كشفت (العروة الوثقى) عن

وجهه المشرق للشيخ رشيد.. فوهب له حياته.. ومات في سبيله.. عليه رحمة الله [١].

* * *

* *

*

---

(١) انظر في ذلك:

- رشيد رضا (تاريخ الأستاذ الإمام) (١/ ٨٤، ٨٥، ١٠٠١، ٩٩٦، ١٠٠٢، ٨٤، ٨٥ - ٨٧، ٣٩٠، ٩٩٨، ١٠٣٦، ١٠٢٧، ١٠٢٣) طبعة القاهرة سنة (١٩٣١م).

- الإمام محمد عبده (الأعمال الكاملة) (٣/ ١٣٥). دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة، طبعة القاهرة سنة (١٩٩٣م).

- ومحاربة التنصير، ومطاردة دعاته ودحض ادعاءاته عبر عالم الإسلام.. وتسليح المسلمين بأدوات مقاومة شبهاته ومفترياته.. وتأليف الكتب، والجمعيات التي تحارب المنصرين..

- والدعوة إلى إقامة الجمعيات والمؤسسات - العلمية.. والخيرية.. والاجتماعية - لتكون جهود الأمة في الإصلاح أفعل وأجدى وأدوم.

- والتأكيد على منهاج التدرج في الإصلاح؛ لأن صياغة الإنسان صياغة إسلامية، وتكوين الصفوة - من العلماء والمفكرين - وتهيئة الواقع لتقبل المنهاج الإسلامي، لا بد فيها من التدرج.

- والإلحاح على ضرورة ترتيب الأولويات في الإصلاح.. فإصلاح مناهج الفكر والمؤسسات التي تصنع العقل المسلم وتصوغ الوجدان الإسلامي، هي أولى درجات سلم الإصلاح.. وتربية الأمة مقدمة على الاستيلاء على « الدولة ».. وسياسة التربية سابقة على تربية السياسة.

- والنظر إلى السياسة بمنظار عالمية الإسلام، وعالمية الأمة الإسلامية.

■ ولقد حملت « المنار » إلى العالم الإسلامي منهاجًا جديدًا وفريدًا في تفسير القرآن الكريم، تمثل فيما دونه الشيخ رشيد رضا من دروس الشيخ محمد عبده في تفسير القرآن،

(٢)

منار الإحياء والتجديد

لا نبالغ إذا قلنا: إن (المنار) كانت الإنجاز الأعظم للإحياء الإسلامي على امتداد العمر الفكري للشيخ رشيد رضا.. والإنجاز الأعظم لفكر هذا المصلح الإسلامي الكبير.. فحتى كتبه ورسائله ومعاركه الفكرية، بل ومشروعاته العملية - قد بدأت وظهرت أولًا على صفحات (المنار).

● لقد مثلت مجلداتها الخمسة والثلاثون ديوان تيار الفكر الإحيائي.. ذلك أنها قد صدرت:

- لحمل رسالة مدرسة الإحياء الديني والتجديد الإسلامي إلى كل أقطار عالم الإسلام.

- وتزكية التيار الإسلامي الوسطي سبيلًا للنهضة الإسلامية والشرقية.. رافضة الجمود الذي يقلد السلف، والتبعية التي تقلد النموذج الحضاري الغربي.

- وإعادة نشر مقالات (العروة الوثقى).. ومقالات الإمام محمد عبده التي سبق نشرها في (الوقائع المصرية) باعتبار (المنار) الامتداد لهذا الاتجاه.

- وديوان تجديد وإبداع الإمام محمد عبده في تحرير العقل الإسلامي من أغلال الجمود والتقليد..

- وتنقية العقيدة من شبهات الشرك الجلي والخفي.. ومن البدع والخرافات..

- والدفاع عن الشريعة الإسلامية وعلومها.. وعن اللغة العربية وعلومها وآدابها وفنونها..

- ونشر الفتاوى المعاصرة، التي تفقه الأحكام وتفقه الواقع الجديد، لتعقد القران بين فقه الواقع وفقه الأحكام..

- والتبصير الأمة بالفروق بين الدين الإلهي المقدس والمعصوم والملزم وبين العادات والتقاليد والأعراف..

- والدفاع الواعي عن وحدة الأمة، والجامعة الإسلامية، التي هي جنسية الشرقيين على اختلاف قومياتهم ومللهم وأوطانهم..

- والتأييد - المستنير.. والناقد - للدولة الإسلامية الجامعة - يومئذ - وهي الدولة العثمانية، مع الدعوة إلى إصلاح مفاسدها؛ وتلافي عيوب إدارتها، وشد أزرها في مواجهة أعدائها من الإمبراطوريات الاستعمارية الغربية.. ومن النزعات الانفصالية..

- والتحذير من تقليد الحضارة الغربية الغازية.. مع الدعوة إلى تعلم علوم الغرب، وخبراته في التقدم - التي هي مشترك إنساني عام -..

- والدعوة إلى الإصلاح الاقتصادي، الذي يحرر اقتصاديات العالم الإسلامي من النهب الاستعماري الغربي، وذلك ليكون الاقتصاد المتحرر دعامة للاستقلال الحضاري والسياسي.

- ومحاربة التنصير، ومطاردة دعاته ودحض ادعاءاته عبر عالم الإسلام.. وتسليح المسلمين بأدوات مقاومة شبهاته ومفترياته.. وتأليف الكتب.. والجمعيات التي تحارب المنصرين.

- والدعوة إلى إقامة الجمعيات والمؤسسات العلمية.. والخيرية.. والاجتماعية - لتكون جهود الأمة في الإصلاح أفعل وأجدى وأدوم.

- والتأكيد على منهاج التدرج في الإصلاح؛ لأن صياغة الإنسان صياغة إسلامية، وتكوين الصفوة - من العلماء والمفكرين - وتهيئة الواقع لتقبل المنهاج الإسلامي، لا بد فيها من التدرج.

- والإلحاح على ضرورة ترتيب الأولويات في الإصلاح.. فإصلاح مناهج الفكر والمؤسسات التي تصنع العقل المسلم وتصوغ الوجدان الإسلامي، هي أولى درجات سلم الإصلاح. وتربية الأمة مقدمة على الاستيلاء على « الدولة ».. وسياسة التربية سابقة على تربية السياسة.

- والنظر إلى السياسة بمنظار عالمية الإسلام، وعالمية الأمة الإسلامية.

• ولقد حملت « المنار » إلى العالم الإسلامي منهاجًا جديدًا وفريدًا في تفسير القرآن الكريم، تمثل فيما دوّنه الشيخ رشيد رضا من دروس الشيخ محمد عبده في تفسير القرآن؛

على امتداد ست سنوات - من شهر (المحرم سنة ١٣١٧هـ/ مايو سنة ١٨٩٩م) وحتى وفاته سنة (١٩٠٥م).. حملته أعداد المنار إلى القراء على امتداد اثني عشر عامًا - من شهر (المحرم سنة ١٣١٨هـ/مايو سنة ١٩٠٠م) وحتى (جمادى الأولى سنة ١٣٣٠هـ/مايو سنة ١٩١٢م).. ثم أكمله الشيخ رشيد في مواصلة هذا التفسير.

ولقد كان هذا التفسير - الذي اشتهر (بتفسير المنار) - فتحًا جديدًا في عالم التفسير للقرآن الكريم.. وفي تاريخ هذا التفسير.. وبعبارة الإمام محمد البشير الإبراهيمي (١٣٠٦ - ١٣٨٥هـ/ ١٨٨٩ - ١٩٦٥م):

« فلقد كان تفسير الأستاذ الإمام للقرآن: المنهاج المعجزة في التفسير. المنبئ بظهور إمام المفسرين بلا منازع.. أبلغ من تكلم في التفسير بيانًا لهديه، وفهمًا لأسراره، وتوفيقًا بين آيات الله في القرآن، وبين آياته في الأكوان، فبوجود هذا الإمام وُجِدَ علم التفسير وتم، فهو آية على أن القرآن لا يفسر إلا بلسانين: لسان العرب ولسان الزمان.. ولقد جاء تفسيرًا لا للقرآن بل لمعجزات القرآن »[1]!!

نعم.. صدرت (المنار) لتحمل هذه الرسالة الإصلاحية الإحيائية التجديدية إلى كل أقطار عالم الإسلام.. حتى لقد

---

(١) آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (٢/٢٥٢) جمع وتقديم: د. أحمد طالب الإبراهيمي، طبعة بيروت (١٩٩٧م).

فتحت نوافذ الفكر والعلم والتعليم والاستنارة أمام بقاع إسلامية كانت تعيش في ظلمات الجهل والجاهلية، بعيدة عن الحدود الدنيا من العلم والتعلم!!.. واستمرت (المنار) في حملها لهذه الرسالة، وفي إشاعتها، وفي إحداث التراكم المعرفي الإسلامي على امتداد ما يقرب من أربعين عامًا هجريًا (١٣١٥ - ١٣٥٤هـ/١٨٩٨ - ١٩٣٥م) فكانت ديوان النهضة الإسلامية طوال ذلك التاريخ.

• ولقد وصف الإمام محمد عبده منهج (المنار) فقال: « إن الحق يظهر في (المنار) عريانًا في الغالب، ليس عليه شيء من الحلي والحلل التي تجذب إليه أنظار من لم يألفوا الحق لذاته »!

ولذلك كان (المنار) سابحًا - في مناخ غير ملائم - ضد التيارات الطاغية على فكر الأمة في ذلك التاريخ.. تيار الجمود والتقليد المتحصن بالمؤسسات الموروثة - التعليمية منها والصوفية -.. وتيار التغريب، الذي اشتد عوده في ظلال الاستعمار، بعد هزيمة الثورة العرابية سنة (١٢٩٩هـ/١٨٨٢م).

ولقد قاومت الحكومة العثمانية هذه المجلة عند صدورها، وحرمت على رعاياها تلقيها - كما سبق وصنعت السلطات الإنجليزية مع (العروة الوثقى)!-.. ورد أغلب المصريين الذين أرسلت إليهم أعدادها بالبريد - مجانًا - ردوها إلى الشيخ رشيد رضا!!.. ولم يبدأ رواجها، وتعلق الناس بها إلا بعد

خمس سنوات من صدورها!.. فكان استمرارها درسًا في الجهاد والصمود، ذلك أن صاحبها قد نظر إليها نظرته إلى أداء الفريضة الإلهية الاجتماعية - فريضة الكفاية - التي يقع الإثم بخذلها على الأمة جمعاء.. وعن هذه الحقيقة كتب يقول:

« إنني لم أنشئ (المنار) ابتغاء ثروة أتأثلها، ولا رتبة أمير أو سلطان أتجمل بها، ولا جاه عند العامة أو الخاصة أباهي به الأقران، وأباري به أعلياء الشان، بل لأنه فرض من الفروض يُرجى النفع من إقامته، وتأثم الأمة كلها بتركه. فلم أكن أبالي بشيء إلا قول الحق والدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فكنت إن أصبت بحسب علمي فسيان رضي الناس أم سخطوا، مدحوا أم ذموا، قبلوا المنار أم رفضوا.. »[1].

ولقد بارك الله في أعداد (المنار) ومجلداتها.. التي صار يعاد طبعها - في حياة صاحبها - وحتى هذه الأيام!.. والتي استخرج من صفحاتها العديد والعديد من الكتب والدراسات.. والتي وضعت فيها العديد من رسائل الماجستير والدكتوراه..

لقد صارت ديوان المدرسة الإحيائية والتجديدية في تاريخنا الحديث.. حتى أن اليقظة الإسلامية المعاصرة عندما أرادت أن تبدأ بدأت (بالمنار).. فرأينا الشيخ حسن البنا (١٣٢٤ -

---

(١) مقدمة رشيد رضا للطبعة الثانية لمجلدات (المنار) (ص ١، ٣) طبعة القاهرة سنة (١٣٢٧م).

١٣٦٨هـ/١٩٠٦ - ١٩٤٩م) - الذي حضر بعض دروس الشيخ رشيد رضا.. وتردد على دار (المنار) - بعث إصدار هذه المجلة - بحجمها وشكلها وتبويبها - بل وتسلسل أعدادها وأجزائها - بعد وفاة الشيخ رشيد - وذلك بداية من (غرة جمادى الثاني سنة ١٢٥٨هـ/١٨يوليو سنة ١٩٣٩م) - وعلى امتداد أربعة عشر شهرًا.. بل إن الشيخ البنا عندما شرع في تفسير القرآن الكريم، بدأ من حيث انتهى الشيخ رشيد، الذي سبق وبدأ هو أيضًا من حيث انتهى الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده!

* * *

إذن.. كانت (المنار) ديوان الإحياء الإسلامي، وميدانًا لتجديد دنيا المسلمين بالدين الإسلامي المتجدد.. أي أنها لم تقف عند « تجديد الفكر »، وإنما عملت على « تجديد الواقع » أيضًا.

● لقد دعت إلى نهضة حضارية إسلامية، وذلك في مواجهة الخيار الغربي - الوضعي العلماني - في التقدم.. مع رفض خيار الجمود والتقليد للسلف والتراث، ذلك الذي فتح ويفتح - بالعجز والقصور - أبواب الواقع الإسلامي لخيار التغريب.

فالأفغاني قد دعا إلى هذا الخيار الحضاري الإسلامي، عندما قال:

« إنا، معشر المسلمين، إذا لم يؤسس نهوضنا وتمدننا على

قواعد ديننا وقرآننا فلا خير لنا فيه، ولا يمكن التخلص من وصمة انحطاطنا وتأخرنا إلا عن هذا الطريق.

وإن ما نراه اليوم من حالة ظاهرة حسنة فينا - من حيث الرقي والأخذ بأسباب التمدن - هو عين التقهقر والانحطاط، لأننا في تمدننا هذا مقلدون للأمم الأوربية، وهو تقليد يجرنا بطبيعته إلى الإعجاب بالأجانب، والاستكانة لهم، والرضا بسلطانهم علينا. وبذلك تتحول صبغة الإسلام، التي من شأنها رفع راية السلطة والغلب، إلى صبغة خمول وضعة واستئناس لحكم الأجنبي.. إن الدين هو قوام الأمم، وبه فلاحها، وفيه سر سعادتها، وعليه مدارها.. وهو السبب المفرد لسعادة الإنسان.. »[1].

• وإلى نفس المرجعية الإسلامية في النهضة دعا الإمام محمد عبده، فقال:

« إن سبيل الدين، لمريد الإصلاح في المسلمين، سبيل لا مندوحة عنها، فإن إتيانهم من طرق الأدب والحكمة العارية عن صبغة الدين، يحوجه إلى إنشاء بناء جديد، ليس عنده من مواده شيء، ولا يسهل عليه أن يجد من عماله أحدًا. وإذا كان الدين كافلًا بتهذيب الأخلاق، وصلاح الأعمال، وحمل النفوس على طلب السعادة من أبوابها، ولأهله من الثقة فيه ما ليس لهم

---

(١) (الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني) (ص ٣٢٧، ٣٢٨، ١٣١، ١٧٣)، دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة، طبعة القاهرة، سنة (١٩٦٨م).

في غيره، وهو حاضر لديهم، والعناء في إرجاعهم إليه أخف من إحداث ما لا إلمام لهم به، فلم العدول عنه إلى غيره؟! »[1]

• ولقد حمل (المنار) رسالة البلورة لمعالم هذا المشروع الحضاري الإسلامي إلى كل أقطار العالم الإسلامي.. فدعا رشيد رضا إلى تأسيس النهضة والتقدم على الدين:

« لأن التاريخ قد علمنا أنه لم تقم مدنية في الأرض من المدنيات التي وعاها وعرفها إلا على أساس الدين، حتى مدنيات الأمم الوثنية؛ كقدماء المصريين والكلدانيين واليونانيين.

لقد علمنا القرآن أنه ما من أمة إلا وقد خلا فيها نذير من الله ﷻ لهدايتها، فنحن، بهذا، نرى أن تلك الديانات الوثنية كان لها أصل إلهي، ثم سرت الوثنية إلى أهلها حتى غلبت على أصلها.. وليس للبشر ديانة يحفظ التاريخ أصلها حفظًا تامًا إلا الديانة الإسلامية.. فاتباع الرسل وهداية الدين أساس كل مدنية، لأن الارتقاء المعنوي هو الذي يبعث على الارتقاء المدني.. »[2].

• وذلك لأن الشريعة الإسلامية جامعة للإصلاح الديني والسياسي كليهما:

« فمن مقومات الإصلاح الديني: الإصلاح السياسي المدني، على أن الإصلاحين متلازمان في الأمة الإسلامية، لا يقوم

---

(١) (الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده) (٣/٢٤٨) .

(٢) رشيد رضا (تفسير المنار) (٩/٤٢٩) طبعة دار المعرفة بيروت .

أحدهما حق القيام إلا بالآخر، والشريعة الإسلامية هادية للإصلاحين؛ إذ كل خير وصلاح للعباد يتعلق بالمعاش والمعاد قد قرره الإسلام.. »[1].

• والاجتهاد هو الشرط الأول لبقاء الشريعة الإسلامية وافية بمتطلبات هذا الإصلاح:

« لأن هذه الشريعة هي خاتمة الشرائع الإلهية، وحكمة ذلك أن الله تعالى قد أكمل بها الدين الحق، فجعلها جامعة بين مصالح الروح والجسد، ومنح الأمة حق الاجتهاد والاستنباط، وبهذين كانت موافقة لمصالح البشر في كل زمان ومكان.. »[2].

• وهذا المشروع النهضوي الإسلامي، المتسلح بالتجديد الديني، إنما يحارب في جبهتين:

أ – جبهة الجمود الديني عند أفكار السلف، كما هو الحال عند

« حماة تقليد الكتب المدونة في المذاهب المتبعة، من سنية وشيعة إمامية وإباضية، وحجتهم أن علوم الشريعة المودعة في الكتاب والسنة إجمالاً وتفصيلاً قد انحصرت فيها، فمن لم يأخذ بمذهب منها فليس على ملة الإسلام »!

ب – وجبهة التقليد للحضارة الغربية الداعين للانسلاخ عن الموروث من

---

(١) رشيد رضا (المنار) (١/٣٩/٥ ٢٩٥).

(٢) المصدر السابق (١٩/٣/٥ ١٠٥).

« دعاة الحضارة العصرية، والنظم المدنية، والقوانين الوضعية، الذين يقولون: إن هذه الشريعة المدونة لا تصلح لهذا الزمان، ولا يمكن أن تصلح بها حكومة، ولا تستقيم بها مصالح أمة، فيجب تركها واستبدال قوانين الإفرنج بها. أو استقلال كل قوم وشعب من المسلمين كغيرهم بتشريع جديد يوافق مصالحهم، وإلا كانوا من الهالكين »[1]!

• والتبشير بشمولية الإسلام للدين والدولة جميعًا.. للشرع والسياسة معًا.. لكن ليس كما يفهم المتغربون أنها الكهانة التي عرفتها أوربا عندما جمعت كنيستها السلطة الزمنية إلى السلطة الدينية.. لأن الإسلام ينكر هذه السلطة الدينية - بهذا المعنى - ويحاربها..

وحتى السلطة الروحية للمتصوف - في التجربة الإسلامية - لم تبلغ ما بلغته كهانة « الأكليروس » في التاريخ الأوربي:

« ولو كان الإسلام شرع هذه السلطة المعروفة في الملل السابقة عليه، من البوذيين والبراهمة والإسرائيليين والنصارى، أو أجازها - لوجد لها في المسلمين نظام ورؤساء، ولكن شيئًا من ذلك لم يُوجد. وإنما وُجدت طائفة منهم تصدت للتربية والإرشاد، ثم انقسمت إلى طوائف وجماعات، ولم تكن لهم سلطة على أحد، وإنما يجمعهم من شاء باختياره، ولم يسلموا مع

---

(١) رشيد رضا (المنار) (٦٦/١/٢٩)

ذلك من رمي الفقهاء لهم بالانحراف عن الدين، ومن تفريق الحكام شملهم، ولذلك لم يكن لهم ظهور إلا حيث يضعف علم الدين وحكمته.. »[١].

• والتميز الإسلامي في المشروع الحضاري، لا يعني القطيعة مع الحضارات الأخرى، وفي مقدمتها الحضارة الغربية المعاصرة.. وإنما يعني هذا التميز:

أ – الانفتاح الحضاري، والتفاعل الفكري، واستلهام المشترك الإنساني العام في المعارف والعلوم.

ب – مع الاحتفاظ بسمات الخصوصية الحضارية الإسلامية وقسماتها.. فنحن في حاجة إلى التعلّم من الغرب علوم التمدن المدني، لترقية الواقع المادي، مع الاحتفاظ بتميزنا في العقائد والفلسفات والشرائع واللغات والآداب والفنون. وفي ميادين الخصوصية الثقافية والحضارية، نحن مدعوون إلى التعلم من الغرب خبرات أممه وشعوبه وتجاربها في تطوير وترقية خصوصياتها الثقافية والحضارية.. وكما يقول الشيخ رشيد:

« .. إننا في أشد الحاجة إلى الصناعات الإفرنجية، وما تتوقف عليه من العلوم والفنون العملية، وإلى الاعتبار بتاريخهم وأطوار حكوماتهم وجماعاتهم، ولكن يجب أن يقوم باقتباس ذلك جماعات منا يجمعون بينه وبين حفظ مقوماتنا ومشخصاتنا،

(١) رشيد رضا (المنار) ج ٥/٢٢/٧٤٨.

وأركانها: اللغة، والدين، والشريعة، والآداب، فمن فقد شيئاً من هذه الأشياء فقد فقد جزءاً من نفسه، لا يمكن أن يستغني عنه بمثله من غيره، كما أنه لا يستغني بعقل غيره عن عقله، ولا بجسم سواه عن جسمه، وإنما نستفيد من العبرة بحالهم، كيف نرقي لغاتنا كما رقّوا لغاتهم، وكيف ننشر ديننا كما ينشرون دينهم، وكيف نسهل طرق العلم بشريعتنا وآدابنا كما سهلوا طرق شرائعهم وآدابهم.. »[1].

• وإذا كان التقليد للغرب قد جاءنا - ضمن ما جاءنا - بالنزعة القومية العنصرية المتعصبة، التي تفرق وحدة الأمة - التي هي فريضة إسلامية، وضرورة حياتية - فإن الجامعة الإسلامية هي إطار الوحدة والانتماء لشعوب الأمة الإسلامية:

« ذلك أكمل الجنسيات وأنفعها للبشر ما كانت أعم وأشمل للطوائف والجمعيات المختلفة في النسب والوطن واللغة والدين والحكومة، بأن يقصد بها الخير للجميع، للمساواة في الحقوق، وتمكينهم من الرقي إلى ما أعدتهم له الفطرة البشرية من الكمال الاجتماعي. وإنها جنسية لا يتحسر عليها نوابغ الحكماء، وهي موجودة في الملة الإسلامية - وإن كان المسلمون من أبعد الناس عنها! فالملة الإسلامية تساوي بين المختلفين في الأنساب والأوطان والأديان، وتسمح لمن يحل في حكمها، وهو على دينه، أن ينشئ

---

(١) رشيد رضا (المنار) (١٠/١١٧).

في بلادها محاكم لأهل ملته وأبناء جلدته، فلا تلزمه بأحكامها إلزاما، فإن هو اختار حكمها بنفسه ساوت بينه وبين أقرب الناس من بنيها أو أعلى أفرادها مكانة فيها، فهي تدعو جميع البشر إلى التعارف والتآلف في ظل حمايتها، وإنه لظل ظليل يباح للمستظل به كل شيء إلا محاولة إزالته أو إزالة فائدته للناس، وهي دفع الشر والأذى عنهم، وتقريب الخير منهم، مع حفظ حريتهم في أديانهم وأعمالهم.. »(١)

* * *

على صفحات (المنار) تم بسط الحديث عن معالم المشروع الحضاري النهضوي، الذي صاغت معالمه المدرسة الإحيائية:

• المرجعية الإسلامية للنهضة..

• وشمولية الشريعة الإسلامية للإصلاح الديني والإصلاح السياسي كليهما..

• وضرورة الاجتهاد والتجديد، لتواكب الشريعة جميع المستجدات، عبر الزمان والمكان..

• والوسطية الجامعة بين منابع المرجعية الإسلامية وبين الواقع المتجدد، دونما انغلاق على تجارب السلف، أو قطيعة مع التراث توقع أصحابها في تقليد الحضارة الوافدة والغازية..

---

(١) رشيد رضا (المنار) (١٩٢٨/٧٨٦، ٧٨٧).

• والاعتصام بالشرع الإسلامي، دون الوقوع في شراك الكهانة والسلطة الدينية.. بالمعنى الكنسي الغربي - تلك التي يرفضها الإسلام، والتي برئ منها تاريخنا الحضاري.

• والانفتاح على الحضارات المختلفة، والتفاعل مع كل المعارف والعلوم التي تمدن الواقع، مع الاحتفاظ بخصوصيتنا الحضارية، وهويتنا الثقافية، وشخصيتنا التي تميزنا باللغة.. والدين.. والشريعة.. والآداب.

• والتعلق برابطة الجامعة الإسلامية، التي تستوعب شعوب الأمة وأجناسها ولغاتها وأوطانها ومللها، حذرًا من شرور التعصب القومي والعصبية الإقليمية.

وغير ذلك من قسمات هذا المشروع النهضوي الإحيائي الذي حمل (المنار) رسالته إلى العالم الإسلامي على امتداد نحو أربعين عامًا.. حتى أصبح «المدرسة» و«الديوان» لتيار البعث الإسلامي واليقظة الإسلامية في عصرنا الحديث.

* * *

لقد عرف العالم الإسلامي، في عصره الحديث، عشرات المجلات الكبرى.. لكن (المنار) تفردت من بين كل تلك المجلات، عندما أصبحت مدرسةً جامعة لتيار الإحياء والتجديد - الذي هو أعظم تيارات العصر في عالم الإسلام -.. وقيادةً لإقامة مؤسسات الإصلاح والمقاومة والنهوض.

بل وكانت المنطلق للحركات الإسلامية الجماهيرية، التي رفعت شعارات شمولية المنهاج الإسلامي للدين والدولة.. للعقيدة والشريعة.. للفرد والأمة.. للدنيا والآخرة.. في مواجهة العلمانية الغربية التي أرادت اختزال الإسلام، واستبعاد حاكميته في ميادين الاجتماع والحياة.

هكذا كانت « المنار ».. ولا تزال ثمراتها تسري صحوة إسلامية معاصرة، على امتداد عالم الإسلام حتى هذه اللحظات.

وصدق الله العظيم ﴿ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴾ (الرعد: ١٧).

* * *
* *
*

(٣)

أولى المعارك ضد العلمانية

قبل صدور (المنار) - أواخر القرن الثامن عشر الميلادي سنة (١٨٩٨م) كانت أوربا الاستعمارية - ممثلة في فرنسا - صاحبة العلمانية المتوحشة في بلادها.. والنزعة الصليبية ضد الإسلام في مستعمراتها المسلمة!! - .. كانت قد نجحت في جعل لبنان - بواسطة مدارس الإرساليات التنصيرية الفرنسية - معمل تفريخ كتيبة من المثقفين الموارنة، الذين صُنعت عقولهم وصيغت وجداناتهم وفق المناهج التغريبية.. المعادية للحضارة الإسلامية والتاريخ الإسلامي.

فلقد كانت رسالة هذه المدارس الفرنسية - بلبنان - وفق عبارات القناصل الفرنسيين في بيروت - هي: « تكوين جيش - (ثقافي) - متفان في خدمة فرنسا والحضارة الأوربية المسيحية.. وتأمين سيطرة فرنسا على منطقة خصبة ومنتجة - (المشرق العربي) -.. وجعل البربرية العربية - (هكذا!) - تنحني لا إراديًا أمام الحضارة المسيحية لأوربا »[1]!!

---

(١) من محفوظات أرشيف الخارجية الفرنسية باريس لسنوات: (١٨٤٠ - ١٨٩٨م).

ولقد هاجر كثيرون من « جنرالات » هذا « الجيش الثقافي » إلى مصر.. فأصدروا الصحف والمجلات.. وأقاموا المؤسسات الصحفية والثقافية.. وأصبحوا - بعبارة عبد الله النديم (١٢٦١ - ١٣١٣هـ/١٨٤٥ - ١٨٩٦م) - « لا شرقيين ولا غربيين، اتخذتهم أوربا وسائل لتنفيذ آرائها ووصولاً إلى مقاصدها من الشرق، وهي تحثهم على المثابرة على عملهم باسم المدنية .. »[1].. وكانت مجلة (المقتطف) (١٢٩٣ - ١٣٧١هـ/١٨٧٦ - ١٩٥٢م) الساحة التي نصبت فيها أعلام نظريات التغريب الأوربية.. حتى ليقول « النديم » عن أصحابها: « إنهم أعداء الله وأنبيائه، والأجراء الذين أنشئوا لهم جريدة جعلوها خزانة لترجمة كلام من لا يدينون بدين، ممن ينسبون معجزات الأنبياء إلى الظواهر الطبيعية والتراكيب الكيماوية، ويرجعون بالمكونات إلى المادة والطبيعة، منكرين وجود الإله الحق.. وقد ستروا هذه الأباطيل تحت اسم فصول علمية، وما هي إلا معاول يهدمون بها عموم الأديان !! »[2].

• وعن أحد « جنرالات هذا الجيش الثقافي » - وهو أمين شميل (١٢٤٣ - ١٣١٥هـ/١٨٢٨ - ١٨٩٧م) - صدرت أولى دعوات استخدام العاميات العربية بدلاً من لغة الأمة.. لغة القرآن الكريم!..

(١) مجلة (الأستاذ)، العدد (٢٢) (ص ٥١٤).

(٢) المصدر السابق، العدد (٣٩) (ص ٩٢٣، ٩٢٤).

• وعن « جنرال » آخر صدرت أولى الدعوات إلى « الداروينية » - الملحدة -.. عن شبلي شميل (١٢٧٦ - ١٣٣٥هـ/١٨٦٠ - ١٩١٧م).

• وكانت الدعوة إلى إحلال العلمانية الغربية - وفصل الدين عن الدولة - محل الشريعة الإسلامية وشمول الإسلام للدين والدولة.. كانت واحدة من أخطر دعوات هذا التغريب. التي كان للشيخ رشيد رضا - و (المنار) - شرف التصدي لها - في العام التالي لصدور (المنار).. أي أن الشيخ رشيد كان أول من تصدى لدعاوى العلمانية والعلمانيين في العالم الإسلامي على الإطلاق!..

• فعلى صفحات (المقتطم) (١٣٠٦ - ١٣٧١هـ/١٨٨٩ - ١٩٥٢م) - التي كانت لسان حال الاستعمار الإنجليزي بمصر.. والتي أنشأها هؤلاء الموارنة المتفرنسون - « صحيفة إنجليزية ناطقة بالعربية » - على حد تعبير عبد الله النديم !!

على صفحات (المقتطم) بدأ عدد من نصارى الموارنة الدعوة إلى العلمانية، وفصل الدين عن الدولة في الشرق الإسلامي:

دعا إلى ذلك حنا الطرابلسي - في (١٢ و ١٧ أغسطس سنة ١٨٩٨م) -.. وميشيل حكيم - في (١٥ أغسطس سنة ١٨٩٩م) -.. ثم جاء واحد منهم، مستترا تحت توقيع « مسلم حر الأفكار » ليدعو إلى ذلك في (٣ أغسطس سنة ١٨٩٩م) ..

فكانت معركة الشيخ رشيد رضا ضد هذه الدعوى أولى معارك الإسلام ضد العلمانية في ذلك التاريخ..

• وفي أثناء هذا الحوار بين الشيخ رشيد رضا وبين من يدعي أنه «مسلم حر الأفكار» كشفت «زلات القلم» عن أن هذا المدافع عن فصل الدين عن الدولة ليس مسلمًا بأي حال من الأحوال..

١ - فلقد اعترف بأنه متخرج من مدارس الإرساليات النصرانية.. وأنه قد تربى وتعلم فيها.

٢ - واستخدم مصطلحات لا يستخدمها عادة إلا الكتاب النصارى.. من مثل «الدعوات الدينية المسكونية»!.

٣ - وجهر بما لا يقول به مسلم، من مثل اتهام الإسلام ودعاة الجامعة الإسلامية بأنهم يرون «أن الخطر لا يزول عن الإسلام إلا بتمزيق شمل النصارى، وأن عز الإسلام لا يكون إلا بذل النصارى»!!

• وفي هذا الحوار وضع الشيخ رشيد النقاط على الحروف، فيما يتعلق بموقف الإسلام من العلمانية وفصل الدين عن الدولة.. على النحو الذي يمكن إيجازه في عدد من النقاط.. فهو:

أولاً: كشف عن أن هذه الدعوى لا يقول بها إلا غير المسلمين، الذين تفتح لهم المنابر الصحفية النصرانية صفحاتها لينتقدوا الدعوة إلى الجامعة الإسلامية:

« فـ (الأهرام) و (المقطم) متفقتان على أن الدعوة إلى الجامعة الإسلامية باسم الدين مضرة، وغير موصلة إلى الغاية، وأنه لا سبيل إلى ترقي الأمة الإسلامية إلا باتباع خطوات أوربا كما فعلت اليابان و (المؤيد) لصاحبها الشيخ علي يوسف (١٢٧٩ – ١٣٣١هـ/١٨٦٣ – ١٩١٣م) – رد عليهما قولهما الأول، ولم يبد رأيا جديدا، إلا أنه وافق على أن مسلك الكتاب المسلمين في الدعوة الدينية مفيد، كما أن الأخذ بالفنون والصنائع الأوربية مفيد مع ذلك ».

وثانيا: أن هذه الدعوة إلى فصل الدين عن الدولة، التي ظهرت في (المقطم) (٣ أغسطس ١٨٩٩م) – لا يقول بها مسلم.

« فهو قول لم يتابع به قائله مسلما، ولن يتابعه عليه مسلم؛ لأنه ناسف لبناء الدين الإسلامي، ومقوض لعمود بنائه، وهو: زعم أن الدين والدولة أمران متباينان يجب أن ينفصل أحدهما عن الآخر.

ولقد وُجد للإسلام أعداء اجتهدوا في كل عصر بجحود أو إضعافه، منهم من حاول إفساد العقائد بالتأويل، ومنهم من وضع الأحاديث الكاذبة، ومنهم من سهل للملوك طريق الاستبداد، ومنهم ومنهم، ولكن مجموع مفاسدهم ومضراتهم لن تبلغ بعض ما يرمي إليه هذا القول الخبيث الذي لم يخطر في بال إبليس، فهو أبلغ قول يشير إلى أحكم رأي لمحو السلطة الإسلامية

من لوح الوجود، قاتل الله قائله، ولا كثر فيمن يدعون الإسلام من أمثاله »!

هكذا أعلن الشيخ رشيد رضا أن الدعوة إلى فصل الدين عن الدولة قد تفوقت - في خطرها على الإسلام - على كل دعاوى المفسدين للإسلام عبر التاريخ، بل وتفوقت على أحلام إبليس!.

وثالثًا: مضى الشيخ رشيد ليؤكد على رفض الإسلام - بحكم طبيعته الشاملة - للعلمانية، فقال:

« لقد عرّف علماء المسلمين الدين بأنه: وضع إلهي سائق لذوي العقول باختيارهم إلى الصلاح في الحال والفلاح في المآل. وإن شئت قلت: إلى سعادتهم الدنيوية والأخروية. وقواعده عندهم ثلاث:

١ - تصحيح العقائد.

٢ - وتهذيب الأخلاق.

٣ - وإحسان الأعمال.

والأعمال قسمان: عبادات، ومعاملات. ومن الثاني: الأحكام بأنواعها - قضائية ومدنية وسياسية وحربية - .. ».

ورابعًا: أشار الشيخ رشيد إلى مغايرة الإسلام - في هذا الشمول - للنصرانية، التي لا علاقة لها بالدولة والسياسة.. فقال:

« أما الدين عند النصارى، فهو - (كما في دائرة المعارف)

عبارة عن مجموع النواميس الضابطة لنسبة الإنسان إلى الله، أو يبين صفات تلك النسبة ».

وهو - كما ترى - لا علاقة له بالأمور الدنيوية ولا بالأحكام والسلطة. ومن المشهور أن الديانة النصرانية مبنية على الخضوع لأية سلطة حكمت أصحابها؛ لما في الإنجيل من أن سلطة الملوك إنما هي على الأجسام الفانية، وأن سلطة الدين على الأرواح فقط، فيجب على كل متبع لهذا الدين أن يدين لكل سلطة، ويذعن لكل شريعة حكمته. بخلاف الدين الإسلامي فإنه مبني على السلطة والغلب.. ».

وخامسًا: شرع الشيخ رشيد رضا يفصّل في تميز الإسلام - كدين ودولة - عن النصرانية، فقال:

« إن الدين الإسلامي جامع لمصالح المعاش والمعاد، ومبني على أساس السلطتين الزمنية والروحية، وإن الديانة النصرانية على خلاف ذلك، وإن الخليفة هو رئيس المسلمين القائم على مصالحهم الدينية والدنيوية، وإن كل حكومة تخرج عن طاعته الشرعية فهي منحرفة عن صراط الإسلام، وإن القول بفصل الحكومة والدولة عن الدين هو قول بوجوب محو السلطة الإسلامية من الكون ونسخ الشريعة الإسلامية من الوجود، وخضوع المسلمين إلى من ليس على صراط دينهم ممن يسمونهم فاسقين وظالمين وكافرين. فإن القرآن العزيز الذي هو أساس الدين يقرع دائمًا آذانهم، بل يناديهم من أعماق قلوبهم قائلا بلسان

عربي مبين: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [المائدة ٤٤] ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [المائدة ٤٥] ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ [المائدة ٤٧].

ونحن نقول للذين يدعوننا إلى فصل الدين عن الدولة والتفريق بين السلطنة والخلافة لأجل تأييد الجامعة الإسلامية

إن كنتم تدعوننا هذه الدعوة جاهلين بمعنى هذه الألفاظ عندنا فها نحن أولاء قد بيناها لكم فارجعوا عن دعوتكم، فقد علمتم أن قياس الإسلام على النصرانية قياس مع الفارق، فإن فصل السلطة الروحية عن السلطة الزمنية هو أصل النصرانية، وقد كان رؤساء الدين تعدوا الحدود وتسلقوا عروش السلاطين والملوك مخالفين لصاحب الدين الذي:

قد جاء لا سيف ولا رمح ولا
فرس ولا شيء يباع بدرهم
يأوي المغارة مثل راعي الضأن لا
راعي الممالك في السرير الأعظم

فلا بدع إذا ترقى الدين بانصراف رؤسائه إلى خدمته وتركهم الاشتغال بما ليس منه في شيء، ونحن والنصارى في هذا الأمر على طرفي نقيض، فإننا إذا قلدناهم فيه نكون قد تركنا نصف ديننا الذي هو السياج الحافظ للنصف الباقي.

كلا، إن الدين كله يكون بهذا الفصل عرضة للاضمحلال ومهددًا بالزوال. لا جرم أن ما تدعوننا إليه هو أقرب طريق لإعدام (الجامعة الإسلامية)، فكيف جعلتموه طريق إيجادها؟! وهو أقوى علل شقائها، فأنى تقنعوننا بأنه علة إسعادها »(٢).

وسادسًا: وبعد أن حسم الشيخ الرشيد الأمر على هذا النحو، الذي أكد فيه أن فصل الدين الإسلامي عن الدولة إنما يعني القضاء على نصف الإسلام، الذي هو سياج حفظه.. أي أن في ذلك ضياع كامل الإسلام، ومحوه من الوجود.. شرع في بيان خطأ « الحجة » الكبرى التي يثيرها دعاة العلمانية وفصل الدين عن الدولة.. وهي أن هذا الفصل هو الذي يحقق « الوفاق الوطني » بين أهل الأديان المختلفة في الدولة الواحدة.. فقال:

« ربما كان الحامل لبعض الكتاب المسيحيين على اقتراح ما ذكر - (فصل الدين عن الدولة) - هو اعتقادهم بأن زوال السلطة الشرعية الإسلامية هو الذي يساوي بين طائفتهم وبين المسلمين، ويخمد نيران الغلو في التعصب، فيتفقون على إعلاء شأن الوطن، ويخدم كل دينه من الوجهة الروحية التي لا مثار فيها للتنافر والتفاخر ».

وبعد عرض « حجتهم » هذه - التي هي عمدة ما لدى العلمانيين حتى اليوم! - أخذ الشيخ رشيد يفند هذه « الحجة »، فقال:

« ويسهل علينا أن نبين لهم خطأهم في اعتقادهم هذا، فنقول:

١ - إن بناء الشريعة الإسلامية قام على العدالة والمساواة بين

المسلمين وغيرهم في الأحكام والحقوق المعبر عنها بهذه الجملة التي يتناقلها الإسلام خلفا عن سلف، وهي: « لهم ما لنا وعليهم ما علينا ». وقد دلنا التاريخ على أن الحكومات الإسلامية كانت تراعي هذه القاعدة بحسب تمسكها بالدين قوة وضعفًا.

ومن قابل بين مساواة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب الإمام عليًا صهر النبي وربيبه وابن عمه برجل من آحاد اليهود في المحاكمة، وانتقاد علي عليه بقوله له: « يا أبا الحسن »، وعده التكنية إخلالاً بالمساواة لما فيها من التعظيم، وبين ما هو جار اليوم في فرنسا من التحامل على « دريفوس » (١٨٥٩ - ١٩٣٥م)، وهو من أكابر عظماء اليهود، حتى أنهم حاولوا قتل وكيله الذي يحامي عنه، وهم أصحاب القلم الذي ينطق بالحرية والعدالة والمساواة - يظهر له الفرق بين المسلمين في بداوتهم والأوربيين في نهاية مدنيتهم، فالشريعة في نفسها عادلة، ولا يضر المسيحيين أن مواطنيهم المسلمين يعتقدون أنها سماوية، بل هو ينفعهم.. وهم لا فرق عندهم بين الشرائع؛ إذ دينهم يوجب عليهم اتباع أية شريعة حكموا بها.

٢ - إن الترقي الديني والمدني الذي نقصده من إحياء « الجامعة الإسلامية » يتوقف على التهذيب وقيام الأفراد بما عليهم من الحقوق والواجبات لمن يعيشون معهم، وهذا القول لا يخالف فيه أحد.

ومعلوم أن المسلمين لا يعتقدون بحق ولا واجب إلا إذا كان

بيِّنًا في شريعتهم ومأخوذًا من أصول دينهم. فإذا فصل بين الدين والدولة كان جميع ما تكلفهم به الدولة من الحقوق والواجبات غير واجب الاتباع في اعتقادهم، فإذا أخذوا به في العلانية لا يأخذون به في السر، ولا يتم تهذيب الأمة ما لم يكن الوازع لها عن الشر والحامل لها على الخير ثابتًا في نفسها مقررًا في اعتقادها. فخير للمسيحيين أن يحكم المسلمون بشريعة ودولة توجب عليهم احترامهم والقيام بحقوقهم سرًا وجهرًا، وبدون هذا يتضرر المسيحيون ولا يرتقي المسلمون، بل يتدلون ويهبطون، كما علم بالاختبار والمشاهدة.

فقد أنبأنا التاريخ أن مبدأ الخلل والضعف الذي ألمَّ بنا كان إهمال وظائف الخلافة، والخروج بها عن معناها الذي هو حراسة الدين وسياسة الدنيا، ولن يعود للإسلام مجده إلا بإحياء منصب الخلافة واتفاق المسلمين على إمام واحد يعتقدون بوجوب الخضوع له سرًا وجهرًا، ولا إمام اليوم للمسلمين بهذا المعنى إلا القرآن الكريم. فيجب على من يهمه ترقية شئونهم أن يدعوهم به إلى العلم والعمل، وينفض غبار الجهل والكسل، والقيام بمصالح المعاش والمعاد، على ما تقتضيه سنن الترقي والإسعاد. فهو إمام كل إمام، وكما كان المبدأ في ترقيهم كذلك يكون الختام..»(١).

* * *

(١) (المنار)، السنة الثانية - عدد (٢٥) (ص ٣٨٥ - ٣٩١) (٢٦ ربيع الثاني سنة ١٣١٧هـ/٢سبتمبر سنة ١٨٩٩م).

هكذا خاض الشيخ رشيد رضا – على صفحات (المنار) – أولى معارك الفكر الإسلامي ضد العلمانية وفصل الدين عن الدولة في العصر الحديث.. وأبرز:

• ريادة النصارى الموارنة – وصحفهم ومجلاتهم – في التبشير بالعلمانية..

• ورفض المنار الإسلامية لهذه الدعوى..

• ورفض الإسلام – بطبيعته المتميزة عن النصرانية – وشمولية منهاجه للدين والدنيا أية دعوة لفصل الدين عن الدولة..

• وبيان أن شمولية الإسلام هذه للدين والدولة والسياسة والقانون هي الضمان للمساواة في الحقوق والواجبات بين المسلمين وغير المسلمين في الدولة الإسلامية.. وليس العكس كما يدعي العلمانيون .. فالشريعة الإسلامية هي الضامنة للمساواة بين المواطنين على اختلاف أديانهم ومللهم.. ولأن المسلمين لا يحترمون حقوقًا حقيقة إلا لشريعتهم فإن الاحتكام إليها هو الضمان لقيام المسلمين إزاء غيرهم بقواعد هذه المساواة وحقوقها..

وإذا لم يكن في النصرانية شريعة للدولة والاجتماع، فسيان عندهم أن تكون الشريعة التي تطبقها الدولة دينية عند غيرهم أو عن دينهم، فهي – بالنسبة لهم – وضعية في كل الأحوال.. وإذا كانت هذه الشريعة الضامنة للمساواة مقدسة عند المسلمين،

كان ذلك أدعى لاحترام قواعد المساواة فيها من القوانين الوضعية، التي لا يكنُّ لها المسلمون الاحترام!

وبعبارة الشيخ رشيد رضا:

« .. فالشريعة في نفسها عادلة. ولا يضر المسيحيين أن مواطنيهم المسلمين يعتقدون أنها سماوية، بل هو ينفعهم. وهم لا فرق عندهم بين الشرائع؛ إذ دينهم يوجب عليهم اتباع أية شريعة حكموا بها.. فخير للمسيحيين أن يحكم المسلمون بشريعة ودولة توجب عليهم احترامهم والقيام بحقوقهم سرًا وجهرًا، وبدون هذا يتضرر المسيحيون ولا يرتقي المسلمون »!.

نعم.. كانت تلك أولى معارك الفكر الإسلامي مع العلمانية ودعوى فصل الدين عن الدولة.. وكان هذا هو قدر (المنار) وصاحبه في الرد على العلمانيين بـ« المنطق » الشرعي » والبرهان « العقلي » على حد سواء!.

* * *

* *

*

(٤)

وأولى المعارك ضد الصهيونية

وكما قُدر للشيخ رشيد رضا أن يكون الرائد الذي نبه لخطر الدعوة العلمانية والتبشير بفصل الدين عن الدولة.. والتصدي لدعاتها.. على صفحات (المنار) سنة (١٨٩٩م).

كذلك قُدر لهذا الرجل أن يكون المتفرد - في ساحة الفكر الإسلامي - لخطر المشروع الصهيوني على فلسطين والعرب وعموم المسلمين..

• فبعد عقد الحركة الصهيونية الحديثة لمؤتمرها الأول - في سويسرا - بقيادة « هرتزل » (١٨٦٠ - ١٩٠٤م) سنة (١٨٩٧م).. ووضع مخطط إقامة الدولة الصهيونية في الممارسة والتطبيق..

• وبعد رفض السلطان عبد الحميد الثاني (١٢٥٨ - ١٣٣٦هـ/١٨٤٢ - ١٩١٨م) اقتراح « هرتزل » تمكين اليهود من فلسطين، لقاء الملايين التي عرضها عليه..

• أخذت الحركة الصهيونية - بدعم من الاستعمار الغربي.. والحركة البروتستانتية الأوربية والأمريكية - في التسلل إلى أرض فلسطين، لإقامة المستوطنات، وتجنيد وتدريب العصابات..

• والأكثر مدعاة للعجب والاستغراب هو « الغفلة العربية » عن هذا المخطط الصهيوني.. بل وعن نشاط الجمعيات الصهيونية في البلاد العربية في مساندة هذا المشروع، وفي السعي لشراء الأرض في فلسطين!..

وكما تقول إحدى الدراسات الجادة التي أرخت لدور اليهود المصريين في ذلك التاريخ - أوائل القرن العشرين -

« فإن معظم اليهود الذين وجدوا في مصر كل رعاية، قد أيدوا الصهيونية، وقاموا بدعمها بشتى الوسائل.. وذهبوا إلى حد إنشاء الجمعيات الصهيونية التي كانت تتولى جمع التبرعات وإعداد الشبان اليهود تمهيدًا لتهجيرهم إلى فلسطين، وإصدار الصحف الصهيونية بلغات متعددة - بما فيها اللغة العربية - لحشد يهود مصر وراء الهدف الصهيوني الأسمى الذي يتمثل في إقامة دولة عبرية على أرض فلسطين »[1].

وكذلك كان يصنع اليهود في الجزائر - الذين اشتركوا بوفد يمثلهم في مؤتمر « بال » - بسويسرا - سنة (١٨٩٧م)[2].

وكذلك يهود المغرب، الذين أسسوا لهم جمعية صهيونية سنة (١٩٠١م)، وحضروا المؤتمر الصهيوني الخامس - في بال - سنة (١٩٠١م).

---

(١) د. سهام نصار: اليهود المصريون بين المصرية والصهيونية (ص ٨) طبعة بيروت، سنة (١٩٨٠م).

(٢) المرجع السابق (ص ٩).

وكذلك كان الحال مع اليهود في العديد من البلاد العربية.. ففي ليبيا أنشأ اليهود الليبيون مدرسة عبرية عسكرية لتدريب الشبان اليهود عسكريًا للانضمام إلى « اللواء اليهودي » الذي تشكل خلال الحرب العالمية الثانية - والذي حارب في فلسطين بعد الحرب العالمية لإقامة الدولة الصهيونية !! (١).

وكذلك كان حال النشاط الصهيوني عند يهود العراق (٢).

• وبينما كانت المظاهرات العربية تجتاح أرض فلسطين سنة (١٩٣٥م)، ضد الاستعمار والاستيطان الصهيوني كانت الصحافة الصهيونية بمصر تنشر الإعلانات عن « المزادات » لبيع أرض فلسطين لليهود باعتبارهم « أبناء فلسطين البررة » !! (٣).

• وبينما كان ذلك يحدث - علنًا - في البلاد العربية.. ويواكب النشاط الصهيوني والاستعماري المحموم في الغرب - سياسيًا وفكريًا وإعلاميًا - لتمكين الصهيونية من فلسطين.. كانت النخبة العربية - وخاصة الليبرالية والعلمانية - تعيش « غفلة مذهلة » عن هذا الذي يدبر وينفذ لفلسطين والعرب والمسلمين.. حتى لتقول إحدى الدراسات الأكاديمية الجادة عن هذه « الغفلة »: « إن المثير للدهشة أن معظم المثقفين المصريين

---

(١) د. سهام نصار: اليهود المصريون بين المصرية والصهيونية (ص ٩، ١٠).

(٢) المرجع السابق (ص ١٠).

(٣) د. عواطف عبد الرحمن: الصحافة الصهيونية في مصر: ١٨٩٧ - ١٩٥٤م (ص ١٦٤) طبعة القاهرة، سنة (١٩٨٠م).

الذين عاصروا اليهود أثناء وجودهم في مصر قبل حرب سنة (١٩٤٨م) لا يعلمون شيئاً عن طبيعة النشاط الصهيوني الذي مارسه الصهيونيون في البلاد »[1] !!

• هكذا قادت (التبعية الثقافية) أصحابها إلى هذه « الغفلة » عن الخطر الذي يتخلق وينمو ويسرح ويمرح على ظهراني هؤلاء المثقفين الليبراليين، بل لقد تجاوز بعضهم نطاق « الغفلة » إلى حيث « تعاطف » مع اليهود الزاحفين على الاستيطان في فلسطين!!

• لكن هذه الدراسات الأكاديمية الجادة التي رصدت النشاط الصهيوني في البلاد العربية – في النصف الأول من القرن العشرين – وتحدثت عن هذه « الغفلة الغريبة » من قبل الليبراليين العرب عن هذا الخطر – قد أنصفت التيار الإسلامي عندما أشارت إلى تميزه بالوعي بخطر هذا المشروع الصهيوني.. فقالت إحدى تلك الدراسات: « إن المثقفين الليبراليين العرب قد تسامحوا – [!!!] – مع الصهيونية، ولم يقف ضدها إلا أصحاب الاتجاهات الإسلامية والعربية »[2].

وإذا علمنا أن هذه الشهادة التي أنصفت الموقف الإسلامي من الصهيونية، والوعي الإسلامي إزاء هذا الخطر، هي دراسة

---

(١) اليهود المصريون بين المصرية والصهيونية (ص ٩).

(٢) الصحافة الصهيونية في مصر: ١٨٩٧ – ١٩٥٤م (ص ٦).

« يسارية » أدركنا قيمة هذه الشهادة للإسلام والإسلاميين في هذا الموضوع الخطير!

• وهنا تبرز ريادة الشيخ رشيد رضا - و (المنار) - ريادته في الوعي بخطر هذا المشروع الصهيوني، لا على فلسطين وحدها وإنما على عموم العرب والمسلمين.. ويبرز جهاد صاحب (المنار) - الفكري والسياسي.. والعملي - ضد الصهيونية والغرب الاستعماري، الذي يقف وراءها، وتأتي الإشارة إلى معركة الشيخ رشيد ضد الصهيونية، التي رفع بها « بلوى عموم الغفلة » عن العرب والمسلمين!

- ففي نوفمبر سنة (١٩١٠م) ينبه الشيخ رشيد على خطر التغلغل اليهودي في الدولة العثمانية « لأن هدفهم أن يملكوا بيت المقدس وما حوله ليقيموا فيه ملك إسرائيل »[1].

- وفي أكتوبر سنة (١٩٢٨م) ينبه الشيخ رشيد إلى مخاطر إقامة الكيان الصهيوني على الوحدة العربية والإسلامية، وذلك بإقامته « الجسم الصهيوني » العازل بين أجزاء الوطن العربي.. فالهدف « هو جعل هذه المنطقة من البلاد (يهودية - بريطانية) فاصلة بين عرب مصر وعرب سورية والعراق.. »[2].

- وإبان ثورة البراق سنة (١٩٢٩م) - التي اندلعت في

---

(١) (المنار) (٧٢٥/١/١٣).
(٢) المصدر السابق (٤١٦/٦/٢٩).

فلسطين ضد الاستعمار الإنجليزي والصهيونية، كتب الشيخ رشيد سلسلة من المقالات كانت أولى تحليل لخطر الصهيونية ومشروعها الاستيطاني الاستعماري على الشرق والعرب والمسلمين.. ومما جاء في هذا التحليل:

« إن اليهود من قواعد شريعتهم (التوراة) أن يستأصلوا القوم الذين يغلبونهم على أمرهم (حتى لا يستبقوا منهم نسمة ما).

ومن الحقائق الثابتة الخفية أن « الجمعية الماسونية »، التي ثلت عروش الحكومات الدينية من أمم أوربا والترك والروس، هي من كيد اليهود، وهم أصحاب السلطان الأعظم فيها، وإن كان ذلك يخفى على كثير من أهلها أو أكثر المنتمين إليها.

ومن غرائب كيد اليهود وقدرتهم التي فاقوا بها جميع شعوب البشر، أن الغرض السياسي النهائي لهم من هذه الجمعية هو تأسيس دولة يهودية دينية في مهد الدولة الإسرائيلية التي أسسها داود وأتمها سليمان باني هيكل الدين اليهودي في أورشليم على جبل صهيون، ولهذا سموها جمعية البنائين الأحرار، ويريدون بهم الذين بنوا هيكل سليمان. وأكثر أفراد هذه الجمعية يجهلون السبب الصحيح لهذه التسمية.

ومن الحقائق الاجتماعية التاريخية أن اليهود هم الذين وضعوا النظام المالي، والذي هو قطب رحى المدنية الغربية الحاضرة في العالمين القديم والجديد، وأن لهم به النفوذ الأعلى في جميع الدول والأمم « الرأسمالية » - كما يقال في عرف هذا العصر-

ومن الحقائق الثابتة التاريخية أيضًا، أنه لم توجد جماعة من جماعات البشر الدينية والسياسية عرفت كنه كيد اليهود ومكرهم في الأمم، ومقاصد الماسونية وأهلها، وتصدت لمقاومتهم وإسقاط نفوذهم - إلا جمعية الجزويت الكاثوليكية، وذلك أن الكاثوليك يدينون بوجوب الخضوع الديني والسياسي لأحبار رومية، رؤساء الكنيسة المعصومين عندهم، ويعلمون أن اليهود هم الذين ثلوا عرشها بنفوذ الجمعية الماسونية التي انتظم في سلكها الملايين من النصارى ومن غيرهم، وأكثرهم لا يشعرون.

كما لا يخفى ما كان من نفوذ اليهود في ملاحدة الروس الذين أضعفوا سلطة الكنيسة الأرثوذكسية بمجلس الدوما، ثم أسقطوها بثل عرش القياصرة، دعاتها وحماتها، وتأسيس حكم البلشفية في تلك الممالك الواسعة..

وما كان نفوذهم في ملاحدة الترك بإسقاط نفوذ الخلافة التركية العثمانية، ثم بهدم الشريعة الإسلامية من المملكة التركية، وجعل حكومتها إلحادية تسعى لمحو الإسلام من الشعب التركي ومن الشعوب الأعجمية الإسلامية التي كانت تابعة لها، كالألبان والبوشناق وغيرهما، كالإيرانيين والأفغانيين.

« ولقد استخدم اليهود دول النصارى فظاهرتهم على المسلمين.. وأسسوا الجمعية الصهيونية للسعي إلى ذلك بقوة الشعب اليهودي المالية والمعنوية، وبجعل الاعتقاد التقليدي حادياً لهم في هذا السعي وقوة روحية تؤيد سائر القوى الكسبية

إنهم سدنة المال، هيكل المعبود الأكبر للأمم والدول العظمى في هذا العصر، وهم الذين استعبدوهم له، ولهم - بهذا المال - في العالم المدني من النفوذ والصحف والقدرة على الدعاية ما يقلب الحقائق، ويلبس الحق بالباطل..

وهم يعتمدون فيما يرومون من الاستقلال في الوطن القومي في فلسطين على قوة الإنكليز خصيهم. ولقد طلب عشرة الآلف من شبان اليهود الأمريكيين إذن حكومتهم لهم أن يذهبوا إلى فلسطين لقتال العرب.. »[1].

• هكذا قدم الشيخ رشيد رضا - وظل يقدم - على امتداد عقود تخلق الخطر الصهيوني في الشرق العربي والإسلامي، هذه التحليلات السياسية والتاريخية والدينية، التي بلغت في الوعي والعمق آفاقًا تجعلها صالحة للعطاء حتى هذه اللحظات التي نعيد فيها نشر هذه السطور من صفحاتها الطوال!

ولم يكن الرجل ذا موقف عنصري إزاء اليهود.. ولا متعصبًا دينيًا إزاءهم.. فهو الذي أشار فيما كتب إلى الموقف الإسلامي من اليهود في تاريخنا الحضاري، وكيف أن العدل الإسلامي هو الذي رفع عن اليهود الاضطهاد الذي أوقعه بهم الرومان والنصرانية الرومانية « فكان من عدل المسلمين ورحمتهم أن رفعوا الاضطهاد عن رؤوس اليهود، وعاملوهم بالعدل والرحمة،

(١) (المنار) م ٣٠/٥/٣٨٥، ٣٨٧، ٣٨٩، ٣٩١، ٣٩٣).

حتى أنهم صاروا يأذنون لبعضهم بالإقامة في بيت المقدس » - بعد أن كانوا ممنوعين من ذلك على عهد الرومان -(١).

• ولأن هذه هي حقيقة موقف الشيخ رشيد رضا من اليهود - كأهل كتاب - وموقفه من الصهيونية - كحركة استعمارية تحالفت مع الأعداء التاريخيين لليهود ضد الذين أحسنوا إلى اليهود طوال التاريخ -!!.. فقد سعى الشيخ رشيد سعيًا سياسيًا حثيثًا إلى « فك هذا الرباط غير المقدس » بين الحركة الصهيونية وبين الاستعمار، في مقابل أن يعيش اليهود الذين يريدون العيش ببلاد المسلمين، لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين..

نعم.. سعى إلى ذلك، وبذل الجهود مع الحركة الصهيونية.. وحاور زعيمها « حاييم وايزمان » (١٨٦٤ - ١٩٥٢م) قائلاً لهم:

« إنه خير لليهود، إذا كانوا يريدون أن يكثروا في البلاد العربية ويكونوا فيها أحرارًا آمنين متمتعين بما يتمتع به سائر أهلها من الحقوق المدنية والشخصية، أن يتفقوا مع زعماء العرب أنفسهم على ذلك من وسائل ومقاصد.. » وذلك بدلاً من المشروع السياسي الصهيوني، والتحالف اللاأخلاقي مع الاستعمار الغربي ضد العرب والمسلمين.

(١) المصدر السابق.

ظل الرجل يسعى - سياسيًا - وراء هذا الهدف - قبل صدور وعد « بلفور » سنة (١٩١٧م).. وبعده - لكن الحركة الصهيونية، والاستعمار الذي أقام معها هذه « الشراكة » ليستخدمها في تحقيق مخططاته ضد العرب والمسلمين، قد أحبط مساعي الشيخ رشيد.. حتى كتب الرجل فقال:

« ثم انقطعت المذاكرة في هذه المسألة لاعتماد الصهيونيين على قوة الإنكليز في إعادة ملك إسرائيل لهم.. وكلٌّ منهما يمكر بالآخر.. »[1]!!

فعلمنا تاريخ بهذا السعي، وبهذه النتيجة التي انتهى إليها هذا السعي - درسًا آخر يجب أن يعيه الذين يعلقون الآمال على مثل هذه المساعي.. وهذه التسويات!!

• فالسنن القرآنية التي تعلمنا أنهم ﴿ لَيْسُوا سَوَآءً ﴾ (آل عمران: ١١٣).. هي التي تعلمنا أن منهم من هم الأشد عداوة للمؤمنين.. الذين ﴿أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُواْ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ﴾ (البقرة: ١٠٠).. والذين لا يزالون يقاتلون المؤمنين حتى يردوهم عن دينهم إن استطاعوا.. لأنهم ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة: ٣٢].

• كما تعلمنا السنن التاريخية كيف تحالف أجدادهم مع الوثنية الجاهلية ضد التوحيد الإسلامي، وقالوا: إن الحق مع عباد

---

(١) (المنار) (٣٠/٥/٣٤١، ٣٩٢).

الأوثان من « اللات.. والعزى » وليس مع التوحيد والتنزيه الذي جاء به رسول الإسلام ﷺ. ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴾ [النساء: ٥١].

• كما تحالفت الصليبية الأوربية - في عصورها الوسطى - مع الوثنية التترية ضد الإسلام والمسلمين.

فنحن - إذن - أمام سنن تحكم حركة التاريخ.. وتحكم سلوك الجماعات التي ناصبت وتناصب الإسلام والمسلمين العداء عبر هذا التاريخ..

* * *

• وفي دراسة الشيخ رشيد رضا لأسباب هذا الحلف غير المقدس بين النصرانية الغربية - وخاصة البروتستانتية - مع اليهود الصهاينة.. أشار إلى العامل الديني، وأساطيرهم عن عودة المسيح ليحكم العالم ألف سنة سعيدة، بعد حشر اليهود في فلسطين، وإعادة بناء الهيكل على أنقاض المسجد الأقصى..

نعم.. أشار الشيخ رشيد إلى هذا البعد الديني في هذا الحلف غير المقدس، فقال:

« وأعجب من ذلك أن دساس اليهود تمكنت من إغواء كثير من نصارى أوربا وأمريكا وإقناعهم بأن الإيمان بالكتاب المقدس يقتضي مساعدتهم على العودة إلى فلسطين وامتلاك أورشليم،

إلخ.. تصديقًا للأنبياء، وتحقيقًا لظهور المسيح - الذي يختلف الفريقان في شخصه وعمله - فاليهود يعنون مسيحهم الملك الدنيوي الذي يعيد ملك سليمان لهم، والنصارى يعنون المسيح عيسى ابن مريم، الذي يجيء في ملكوته ليدين العالم.. » [١].

• ولقد انتهز الشيخ رشيد رضا فرصة الموقف الواعي والشجاع الذي اتخذه شيخ الجامع الأزهر الإمام الأكبر محمد مصطفى المراغي (١٢٩٨ - ١٣٦٤هـ/١٨٨١ - ١٩٤٥م) - إبان ثورة البراق سنة (١٩٢٩م) - ضد المخطط الاستعماري الصهيوني في فلسطين.. انتهز الشيخ هذه الفرصة للإشادة بموقف الأزهر وشيخه.. وللتنديد « بالغفلة والجبن » اللذين سادا مواقف الساسة الليبراليين - (الأحرار!!) - سواء أكانوا من الحاكمين أم المعارضين إزاء هذا الخطر المحدق بالعرب والمسلمين.. فكتب مشيدًا بالشيخ المراغي « الذي ارتفع صوته - ضد المخططات الإنجليزية - اليهودية في فلسطين في وقت خرست فيه ألسنة جميع أمراء مصر وكبرائها الأحرار - (الليبراليين) - حتى غير المقيدين بسياسة الحكومة وعشريها، لا الوزراء والرؤساء الرسميين وحدهما والشيخ المراغي من كبارهم، وموقفه هذا فتح جديد في النهضة العربية واليقظة الإسلامية معًا.. » [٢].

* * *

(١) (المنار) م ٣٠/٧/٥٥٥).

(٢) المصدر السابق (م ٣٠/٦/٤٦٦).

• وفي الوقت الذي كانت الصحافة الصهيونية بمصر تنشر الإعلانات التي تغري اليهود بشراء أرض فلسطين.. كان الشيخ رشيد رضا ينشر «فتواه» الشهيرة بتحريم بيع الأرض العربية لليهود..

فلقد جاءه من أرض فلسطين - سنة (١٩٣٣م) - «سؤال» من «محمد يعقوب العصين» - رئيس اللجنة التنفيذية لمؤتمر الشبان العرب بفلسطين، يسأل عن «حكم الشرع فيمن يساعد اليهود على امتلاك فلسطين ببيع أرضها..»!! فكانت «فتوى» الشيخ رشيد التي حذر فيها من المخطط الصهيوني «للاستيلاء على فلسطين بالمال.. والسيطرة على مرافقها الاقتصادية.. وتشريد سكانها وإجلائهم عن بلادهم.. لتصبح فلسطين المقدسة يهودية»..

ولأن هذه «الفتوى» هي وثيقة «دينية.. وسياسية»، تعبر عن «ثوابت الموقف الإسلامي» من كل ذرة من ذرات أرض فلسطين.. فإن إعادة نشرها هو فريضة دائمة، يجب أن لا تغيب عن العقل المسلم في يوم من الأيام..

لقد قال الشيخ رشيد، في هذه الفتوى:

«بسم الله الرحمن الرحيم رب اتني حكمنا وفهمنا، وعلمني من لدنك علمًا.

أما بعد، فإن حكم الإسلام في عمل الإنكليز واليهود والصهيونيين في فلسطين حكم قوم من أهل الحرب أغاروا على

وطن من دار الإسلام فاستولوا عليه بالقوة. واستبدوا بأمر الملك فيه، وشرعوا في انتزاع رقبة أرضه من أهله بتدابير منظمة ليسلبوهم المِلك - (بكسر الميم) كما سلبوهم المُلك - (بضمها).

وحكم من يساعدهم على عملهم هذا (امتلاك الأرض) بأي نوع من أنواع المساعدة وأية صورة من صورها الرسمية (كالبيع) وغير الرسمية (كالترغيب) - حكمُ الخائن لأمته وملته، العدو لله ولرسوله وللمؤمنين، الموالي لأعدائهم وخصومهم في ملكهم ومُلكهم، لا فرق بينه وبين المجاهد معهم للمسلمين بماله ونفسه. فالذي يبيع أرضه لليهود الصهيونيين، والذي يسعى في شراء أرض غيره لهم من سمسار وغيره كالذي يساعد أي قوم من الأجانب على قومه فيما يحاولون فتح بلادهم بالسيف والنار وامتلاك أوطانهم، بل أقول، ولا أخاف في الله لومة لائم، ولا إيذاء ظالم: إن هذا النوع من فتح الأجنبي لدار الإسلام هو شر من كل ما سبقه من أمثاله من الفتوح الحربية السياسية والدينية على اختلاف أسمائها في هذا العصر؛ لأنه سلب لحق أهل الوطن في مُلك بلادهم وحكمها، ولحقهم في مِلك أرضها لأجل طردهم منها. ومن المعلوم بالبداهة أنه إذا بقي لنا مِلك الأرض تيسر لنا إعادة مُلك الحكم، وإلا فقدناهما معًا.

هذا، وإن فقد فلسطين خطر على بلاد أمتنا المجاورة لهذا الوطن منها، فقد صار من المعلوم بالضرورة لأهل فلسطين والمجاورين لهم،

ولكل العارفين بما يجري فيها. من عزم اليهود على تأسيس الوطن القومي الإسرائيلي، واستعادة مُلك سليمان بقوة المال، الذي هم أقطاب دولته الاقتصادية، وبقوة الدولة البريطانية الحربية. إن هذا الخطر سيسري إلى شرق الأردن وسورية والحجاز والعراق، بل هو خطر سينتقل من سيناء إلى مصر.

وجملة القول، أن الصهيونية البريطانية خطر على الأمة العربية في جميع أوطانها الآسيوية، وفي دينها ودنياها، فلا يعقل أن يساعدهم عليه عربي غير خائن لقومه ووطنه، ولا مسلم يؤمن بالله تعالى وبكتابه العزيز وبرسوله محمد خاتم النبيين، صلوات الله عليه وعلى آله وأصحابه.

بل يجب على كل مسلم أن يبذل كل ما يستطيع من جهد في مقاومة هذا الفتح، ووجوبه آكد على الأقرب فالأقرب. وأهون أسباب المقاومة وطرقها المقاومةُ السلبيةُ، وأسهلها الامتناع عن بيع أرض الوطن لليهود. فإنه دون كل ما يجب من الجهاد بالمال والنفس الذي يبذلونه هم في سلب بلادنا وملكنا منا.

ومن المقرر في الشرع أنهم إن أخذوها، وجب على المسلمين – في جملتهم – بذل أموالهم وأنفسهم في سبيل استعادتها. فهل يعقل أن يبيح لنا هذا الشرع تمهيد السبيل لامتلاكهم إياها بأخذ شيء من المال منهم، وهو معلوم باليقين، لأجل أن يوجب علينا بذل أضعاف هذا المال مع الأنفس لأجل إعادتها لنا، وهو مشكوك فيه؛

لأنه يتوقف على وحدة الأمة العربية وتجديد قوتها بالطرق العصرية، وأنّى يكون ذلك لها وقلب بلادها وشرايين دم الحياة فيها في قبضة غيرها؟!

فالذي يبيع أرضه لليهود في فلسطين أو في شرق الأردن يعد جانيًا على الأمة العربية كلها لا على فلسطين وحدها.

ولا عذر لأحد بالفقر والحاجة إلى المال للنفقة على العيال، فإذا كان الشرع يبيح السؤال المحرم عند الحاجة الشديدة، ويبيح أكل الميتة والدم ولحم الخنزير للاضطرار، وقد يبيح الغصب والسرقة للرغيف الذي يسد الرمق ويقي الجائع من الموت بنية التعويض، فإن هذا الشرع لا يبيح لمسلم بيع بلاده وخيانة وطنه وملته لأجل النفقة على العيال، ولو وصل إلى درجة الاضطرار، إن فرضنا أن الاضطرار إلى القوت الذي يسد الرمق يصل إلى حيث لا يمكن إزالته إلا بالبيع لليهود وسائر أنواع الخيانة، فالاضطرار الذي يبيح أمثال ما ذكرنا من المحظورات أمر يعرض للشخص الذي أشرف على الموت من الجوع، وهو يزول برغيف واحد مثلًا، وله طرق ووسائل كثيرة.

وإني أعتقد أن الذين باعوا أرضهم ليهم لم يكونوا يعلمون أن بيعها خيانة لله ولرسوله ولدينه وللأمة كلها، كخيانة الحرب مع الأعداء؛ لتمليكهم دار الإسلام وإذلال أهلها، وهذا أشد أنواعها ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ

أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ [الأنفال ٢٧، ٢٨] ...»[1].

* * *

هكذا تألق الوعي السياسي الإسلامي للشيخ رشيد رضا، كنموذج للوعي السياسي الإسلامي عند أعلام التيار الإحيائي والتجديدي إزاء الخطر «الصليبي - الصهيوني» على الشرق العربي والإسلامي..

فحيث كان أهل الجمود والتقليد في غيبوبة عن الوعي بهذا المخطط العالمي والإقليمي والمحلي.. وحيث كان المتغربون في غفلة عن هذا الذي يدبره الغرب لأمتهم ووطنهم.. كان التيار الإحيائي التجديدي، المنطلق من الوعي الإسلامي بثوابت الإسلام والوعي السياسي بحقائق الواقع المعيش يقظًا لهذا الذي يدبره الاستعمار والصهيونية لعالم الإسلام وأمة الإسلام..

ولقد كان للشيخ رشيد رضا شرف التعبير عن هذا الوعي السياسي الإسلامي بحقائق هذه القضية.. قضية الغزوة الصهيونية، والحلف غير المقدس الذي عقده الغرب مع الصهاينة ضد الإسلام والمسلمين.

---

(١) (المنار) (٣٣/٤/٢٧٣ - ٢٧٥) عدد [ربيع الأول سنة ١٣٥٢هـ/ يونية سنة ١٩٣٣م].

• فالاستعمار الاستيطاني الصهيوني هو أخطر أنواع الاستعمار.. لأنه يسلب ملك الأرض وملك الحكم جميعًا.. بينما استعمار الغزو الحربي يسلب ملك الحكم فقط.. ومن ثم تكون إزالته والتحرر منه أيسر من إزالة الاستعمار الاستيطاني.. ولذلك فالخيانة في حالة الاستعمار الاستيطاني - كل ألوان الخيانة - هي أشد وأنكى من كل ألوان الخيانات التي عرفها التاريخ في الصراعات ضد غزوات المستعمرين!..

• والاستعمار الصهيوني الاستيطاني لفلسطين لا يقف خطره الداهم عند هذا القطر العربي المسلم وحده، وإنما يمتد من نقطة الارتكاز هذه إلى كل وطن الأمة العربية.. من مصر إلى العراق!..

• وإذا كانت الصليبية الغربية والصهيونية اليهودية قد وظفت الأساطير الدينية خدمة هذا المخطط الاستعماري، فإن الوعي الإسلامي بحقائق الدين الحق.. وبالسنن الإلهية - الكونية والاجتماعية - وبحقائق الواقع وإمكانات الأمة.. هي الأسلحة الماضية في مواجهة هذه التحديات [1]!.

* * *

(١) انظر في فقه مواقف الشيخ رشيد رضا إزاء الصهيونية كتابنا: في فقه الصراع على القدس وفلسطين (ص ٨١ - ١٠٤) طبعة دار الشروق. القاهرة سنة (١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م).

(٥)

وضد الطائفية القبطية

كان بونابرت (١٧٦٩ - ١٨٢١م) قد ألقى بحبال الغواية للأقليات الدينية في الشرق - وخاصة للأقباط - إبان الحملة الفرنسية على مصر (١٢١٣هـ - ١٧٩٨).. فسقطت قطاعات من هذه الأقليات في مستنقع هذه الغواية، حتى لقد كوّن « المعلم يعقوب حنا » (١٧٤٥ - ١٨٠١م) - الذي يسميه الجبرتي (١١٦٧ - ١٢٣٧هـ/١٧٥٤ - ١٨٢٢م) « يعقوب اللعين »! - كوّن فيلقا قبطيا - من ألفي شاب - تزيوا بزي الجنود الفرنسيين، وحاربوا مع جيش الحملة الفرنسية ضد الشعب المصري، كما كانوا الذراع الأيمن لبونابرت في جباية الأموال والإتاوات والمصادرات!

بل لقد احتفلوا بانتصارات بونابرت على أهل غزة وفلسطين احتفالات استفزت مشاعر المصريين في ذلك الحين!.. وبلغ الأمر حد تكليف الجنرال « كليبر » (١٧٥٣ - ١٨٠٠م) هذه الطغمة - على حد تعبير الجبرتي - « أن يفعلوا بالمسلمين ما يشاؤون.. فتطاولوا على المسلمين بالسب والضرب، ونالوا منهم أغراضهم، وأظهروا حقدهم، ولم يبقوا للصلح مكانا، كما

صرحوا بانقضاء ملة المسلمين وأيام الموحدين »(١)!

• فلما جاء الاستعمار الإنجليزي واحتل مصر (١٢٩٩هـ - ١٨٨٢م) تعاون قطاع من الأقباط مع هذا الاستعمار.. وفي هذا المناخ منح بطرس غالي باشا (١٨٤٦ - ١٩١٠م) لقب الباشوية - وكان أول قبطي يمنح هذه الرتبة الرفيعة!.. كما أسهم في تعميم القانون الأجنبي - المعدل - بالمحاكم الأهلية المصرية سنة (١٨٨٣م) - بعد أن كان وقفا على المحاكم المختلطة في المنازعات بين الأجانب والمصريين -.. وعمل على تهميش الفقه الإسلامي في القضاء المصري عندما تولى نظارة - وزارة - الحقانية - العدل - سنة (١٨٨٧م)، وذلك رغم المعارضة الإسلامية التي قادها شيخ الأزهر ومفتي الديار المصرية الشيخ المهدي العباسي (١٢٤٣ - ١٣١٥هـ/١٨٢٨ - ١٨٩٧م).

• وفي سنة (١٨٩٩م) عقد بطرس غالي مع الإنجليز الاتفاقية الخاصة بالسودان، والتي أسلمت السودان - عمليا - للاستعمار الإنجليزي!..

• وفي (٢٤ يونيو سنة ١٩٠٦م) رأس بطرس غالي المحكمة التي كونها اللورد « كرومر » (١٨٤١ - ١٩١٧م) - المندوب السامي الإنجليزي - لمحاكمة الفلاحين المصريين بقرية « دنشواي » فحكم عليهم بالإعدام والجلد والسجن - في

---

(١) الجبرتي: عجائب الآثار (٥/١٣٤ - ١٣٦) طبعة القاهرة، سنة (١٩٦٥م).

مأساة أثارت ضمير الرأي العام العالمي في ذلك الحين!.

• وفي سنة (١٩١٠م) سعى بطرس غالي إلى مد امتياز شركة قناة السويس الفرنسية إلى ما بعد نهاية مدته في سنة (١٩٦٩م)!.. الأمر الذي دفع أحد الشباب الوطنيين - إبراهيم ناصف الورداني - إلى اغتياله في (١٩ نوفمبر سنة ١٩١٠م).

• وبعد أقل من أربعة أشهر على اغتيال بطرس غالي عقد الأقباط مؤتمرهم الشهير - في مدينة أسيوط - في مارس سنة (١٩١١م) - معلنين مطالب طائفية، وداعين دول أوربا المسيحية إلى مناصرتهم ضد الأغلبية المسلمة في مصر!..

• وفي مواجهة هذا التحدي الطائفي، الذي يريد تجريد مصر من هويتها الحضارية - العربية الإسلامية - تجلى الوعي الحضاري للشيخ رشيد رضا - فكتب عدداً من المقالات - بمجلة (المنار) - كشف فيها عن الأبعاد الحقيقية لهذه النزعة الطائفية.. وفيها قال:

« إنهم يتحدثون عن ما يسمونه المسألة القبطية في مصر.. بل والثورة القبطية! ويريدون أن لا يذكر اسم الإسلام والإسلامية في أمور الحكومة ولا غيرها من المصالح العامة ، وإنما عن الوطنية والمصرية..

إن القبط يعملون كل شيء للقبط باسم القبط، ويعبرون عن أنفسهم بالأمة القبطية، ويسمون البلاد المصرية بلادهم وبلاد

آبائهم وأجدادهم.. ويطلبون ما يطلبون من المناصب والأعمال في الحكومة للقبط على أنها حق للقبط..

والمشهور أن نسبة القبط إلى المسلمين في هذا القطر هي نسبة من خمسة إلى ستة في المائة.. وهم يمتلكون ثلاثين في المائة من ثروة البلاد.. ومعظم أعمال الحكومة المصرية ومصالحها في أيدي القبط.. وهذا هو الذي أطمع القبط في جعل حكومة مصر قبطية محضة في يوم من الأيام..

ولقد أجمع القبط على تأييد الاحتلال.. وألفوا مؤتمرا قبطيًا عامًا في أسيوط - التي سماها بعضهم (عاصمة القبط).

وتقول القبط: إن لنا من الحقوق في هذه الحكومة ما ليس لغيرنا، لأننا سكان البلاد الأصليون.. ويجيبهم المسلمون على هذا بأربعة أجوبة:

١ - إننا لا نسلم أنكم سكان البلاد الأصليون.. وقد صرح المسلمون بهذا، وأيدوه بأقوال مؤرخي الإفرنج.

٢ - إذا سلمنا أنكم من سلالة قدماء المصريين، فإن لنا أن نتبع فيكم سنة أرقى الحكومات المسيحية علمًا وعدلاً وحرية في سكان بلادها الأصليين، وهي حكومة الولايات المتحدة، فهل ترضون أن تكون حقوقكم في هذه البلاد كحقوق هنود أمريكا في حكومتها الآن، وهم أهلها الأصلاء من غير خلاف؟

٣ - إنكم تقولون: إن أكثر مسلمي هذه البلاد منكم،

وأقلهم من العرب والترك والشركس، فلا مزية لكم في هذا النسب الشريف على جمهور المصريين المسلمين، ولهم المزية عليكم بكثرتهم، وكون الحاكم العام من أهل دينهم، وذلك سبب للترجيح مُتّبع في الحكومات المسيحية الراقية.

٤ - إن طول زمن الإقامة في بلد لا يقتضي التفضيل في الحقوق، وقصره لا يقتضي الحرمان من شيء منها متى كان القوم الذين طالت مدتهم أو قصرت من أهل البلاد المقيمين فيها الخاضعين لشريعتها وقوانينها. لقد كان بنو إسرائيل دخلاء في مصر، وفضلهم اللّٰه - تعالى - في كتبه على آل فرعون، ثم فضل اللّٰهُ العرب واصطفاهم بإرسال رسول منهم مثلما اصطفى إخوتهم بني إسرائيل من قبلهم بإرسال رسول منهم - كما أشار إلى ذلك في سفر التثنية الاشتراع - فكيف تطالب حكومة مصر، التي تدين للّٰه - تعالى - أن تميز الشعب المفضول في كتب اللّٰه على الشعب الفاضل، بل الشعبين الفاضلين؟

إن النسب الفرعوني، الذي تُدِلّ به القبط، غير مُسَلَّم لهم، وإذا سلم جدلًا فهو لا يقتضي تفضيلهم على اليهود، بل اليهود أشرف منهم نسبًا لأنهم ينتسبون إلى أنبياء اللّٰه - تعالى - والقبط تنتسب إلى الفراعنة الوثنيين أعداء اللّٰه - تعالى -..

إن القبط شرذمة قليلة في أمة كبيرة، تأكل من ثمراتها زهاء ثلاثين في المائة، وهي زهاء خمسة أو ستة في المائة.

وتستنجد جرائد أوربا وقساوستها ليلزموا الدولة الإنكليزية أن تنصر الفئة القليلة- لأنها مسيحية، على الفئة الكثيرة الإسلامية.. وقد وعدهم بعض القسيسين والسياسيين ليفعلنّ لهم ذلك..

ولقد طفقوا يطعنون في جرائدهم طعنًا صريحًا في سلف المسلمين وخلفهم، ودينهم وآدابهم ولغتهم.. وهم يريدون أن يثبوا على الوظائف الإدارية العالية كما وثبوا في القضاء، يريدون أن تترك الحكومة العمل في يوم الأحد، يريدون أن تدرّس الديانة المسيحية في الكتاتيب والمدارس كلها..

إن المسيحية قد فصلت الحكومة من الدين، كما يقولون، وأمرت أن يعطى ما لقيصر لقيصر وما لله لله، والإسلام ذو شريعة وسياسة، فما بال الذين يأمرهم دينهم بالخضوع لكل حاكم – وإن كان وثنيًا كقيصر الروم في زمن المسيح عليه السلام – قد أصيبوا بهذا الشره في السياسة؟!..

إنه لا يضر من يشارك المسلمين في الخضوع لشريعتهم إن كانوا يدينون لله بهذا الخضوع وهو لا يدين لله به، فإن حقوقه على المسلمين – المكفولة لهم بالشريعة الإسلامية – تكون حينئذ مضمونة بقوة الحكومة في الظاهر، وقوة الاعتقاد في النفس، وحقوقهم عليه لا تكون مضمونة إلا في الظاهر فقط، فالمسلم المتدين لا يأكل حق غيره وإن أمن عقاب الحكومة، وغير المسلم قد يأكل حق المسلم المحكوم به إذا أمن العقاب؛ لأن وجدانه لا يعارضه في ذلك إذا اعتقد أن الحكم لا يجب الخضوع له.

وأقلهم من العرب والترك والشركس، فلا مزية لكم في هذا النسب الشريف على جمهور المصريين المسلمين، ولهم المزية عليكم بكثرتهم، وكون الحاكم العام من أهل دينهم، وذلك سبب للترجيح مُتبع في الحكومات المسيحية الراقية.

٤ - إن طول زمن الإقامة في بلد لا يقتضي التفضيل في الحقوق، وقصره لا يقتضي الحرمان من شيء منها متى كان القوم الذين طالت مدتهم أو قصرت من أهل البلاد المقيمين فيها الخاضعين لشريعتها وقوانينها.. لقد كان بنو إسرائيل دخلاء في مصر، وفضلهم اللّه - تعالى - في كتبه على آل فرعون، ثم فضل اللّهُ العرب واصطفاهم بإرسال رسول منهم مثلما اصطفى إخوتهم بني إسرائيل من قبلهم بإرسال رسول منهم - كما أشار إلى ذلك في سفر التثنية الاشتراع - فكيف تطالب حكومة مصر، التي تدين للّه - تعالى - أن تميز الشعب المفضول في كتب اللّه على الشعب الفاضل، بل الشعبين الفاضلين؟

إن النسب الفرعوني، الذي تُدلّ به القبط، غير مُسلَّم لهم، وإذا سلم جدلاً فهو لا يقتضي تفضيلهم على اليهود، بل اليهود أشرف منهم نسبًا لأنهم ينتسبون إلى أنبياء اللّه - تعالى - والقبط تنتسب إلى الفراعنة الوثنيين أعداء اللّه - تعالى -.

إن القبط شرذمة قليلة في أمة كبيرة، تأكل من ثمراتها زهاء ثلاثين في المائة، وهي زهاء خمسة أو ستة في المائة.

وتستنجد جرائد أوربا وقساوستها ليلزموا الدولة الإنكليزية أن تنصر الفئة القليلة؛ لأنها مسيحية، على الفئة الكثيرة الإسلامية.. وقد وعدهم بعض القسيسين والسياسيين لينفذنّ لهم ذلك..

ولقد طفقوا يطعنون في جرائدهم طعنًا صريحًا في سلف المسلمين وخلفهم، ودينهم وآدابهم ولغتهم.. وهم يريدون أن يثبوا على الوظائف الإدارية العالية كما وثبوا في القضاء. يريدون أن تترك الحكومة العمل في يوم الأحد. يريدون أن تدرّس الديانة المسيحية في الكتاتيب والمدارس كلها..

إن المسيحية قد فصلت الحكومة من الدين، كما يقولون، وأمرت أن يعطى ما لقيصر لقيصر وما لله لله، والإسلام ذو شريعة وسياسة. فما بال الذين يأمرهم دينهم بالخضوع لكل حاكم – وإن كان وثنيًا كقيصر الروم في زمن المسيح عليه السلام – قد أصيبوا بهذا الشره في السياسة؟!..

إنه لا يضر من يشارك المسلمين في الخضوع لشريعتهم إن كانوا يدينون لله بهذا الخضوع وهو لا يدين لله به، فإن حقوقه على المسلمين – المكفولة لهم بالشريعة الإسلامية – تكون حينئذ مضمونة بقوة الحكومة في الظاهر، وقوة الاعتقاد في النفس، وحقوقهم عليه لا تكون مضمونة إلا في الظاهر فقط، فالمسلم المتدين لا يأكل حق غيره وإن أمن عقاب الحكومة، وغير المسلم قد يأكل حق المسلم المحكوم به إذا أمن العقاب؛ لأن وجدانه لا يعارضه في ذلك إذا اعتقد أن الحكم لا يجب الخضوع له.

ولقد كان من مقاصد بطرس غالي التمهيد لإلغاء المحاكم الشرعية، وجعل الحكم في الأمور الشخصية من خصائص المحاكم الأهلية، لأن طلبة الحقوق يتعلمون الفقه الإسلامي، فهو يريد أن يتعود المسلمون بالتدريج حكم لابسي الطرابيش في القضايا الشرعية، حتى لا يبقى للمسلمين في الحكومة المصرية شيء من الشخصيات الملية.

ولقد أراد القبط أن لا يذكر اسم الإسلام والإسلامية في أمور الحكومة ولا غيرها من المصالح العامة.. ليكون الانتقال من إسلامية إلى « مصرية »، مدرجةً إلى الانتقال من « مصرية » إلى « قبطية »..

أليس من الذل والهوان أن نرضى بالانتقال من الإسلامية إلى « مصرية »، ليكون ذلك مدرجة إلى الانتقال من « مصرية » إلى « قبطية »؟!..

مع أن في الجزائر البريطانية كثيرًا من الكاثوليك، ولا تسمح الحكومة لهم بأن يلقنوا مذهبهم في مدارسها، بل المذهب الذي يدرس فيها هو مذهب البروتستانت الذي عليه ملك الإنجليز وأكثر الشعب الإنكليزي، فهل تسمح هذه الحكومة الحرة بأن يدرَّس في مدارسها دين اليهود من رعاياها وهي لا تسمح بتدريس مذهب الكاثوليك من مدارس دينها؟!.

ولا نشرح ما يُشترَط على ملك الإنكليز أن يقوله عند تتويجه من الطعن في الكاثوليكية والبراءة منها، ولا منع

الحكومة الإنكليزية الكاثوليك من إظهار بعض شعائر مذهبهم في عيد الفصح أو غيره، وقس على ذلك سائر دول أوربا..

لقد اشتهرت مصر بأنها بلاد العجائب، وحق لها أن تشتهر بذلك؛ فمسلموها يقفون أرضهم حتى على أديار القبط، وينفقون من ريع أوقافهم الخاصة على تعليم القبط، وحكومتهم تسمح للقبط أن يعلموا دينهم في مدارسها، وهو ما لا نظير له في الحكومات الأوربية التي تقتدي بها.

والقبط تشكو من ظلمهم، وتستعين بأوربا عليهم، وتدلُّ عليهم بنسبها، وتدعي أنها صاحبة البلاد، وأنها أجدر بحكمها.

وفي هذه البلاد معاهد تديرها الحكومة، وينفق عليها من أوقاف المسلمين الخيرية على تعليم أولادهم خاصة، والحكومة تقبل في هذه المعاهد أولاد القبط فتعلمهم على نفقة المسلمين مخالفة بذلك شرط الواقف لأجلهم. فهل تسمح القبط بإنفاق قرش واحد من أوقافها على تعليم مسلم؟!

إن أمر المسلمين في تسامحهم مع القبط وترجيحهم لهم على أنفسهم – لأمر غريب لم يعهد له نظير في الأرض؛

وقف الخديوي الأسبق إسماعيل باشا واحدًا وعشرين ألف فدان على تعليم أولاد المسلمين، وهي الأرض التي تسمى « تفتيش الوادي » ووقف جده – (محمد علي) – من قبله ثلاثة آلاف فدان على تعليم أولاد القبط، فكان عطاؤه للقبط

ولقد كان من مقاصد بطرس غالي التمهيد لإلغاء المحاكم الشرعية، وجعل الحكم في الأمور الشخصية من خصائص المحاكم الأهلية؛ لأن طلبة الحقوق يتعلمون الفقه الإسلامي، فهو يريد أن يعود المسلمون بالتدريج حكم لابسي الطرابيش في القضايا الشرعية؛ حتى لا يبقى للمسلمين في الحكومة المصرية شيء من الشخصيات الملية.

ولقد أراد القبط أن لا يذكر اسم الإسلام والإسلامية في أمور الحكومة ولا غيرها من المصالح العامة.. ليكون الانتقال من إسلامية إلى « مصرية »؛ مدرجةً إلى الانتقال من « مصرية » إلى « قبطية »..

أليس من الذل والهوان أن نرضى بالانتقال من الإسلامية إلى « مصرية »؛ ليكون ذلك مدرجة إلى الانتقال من « مصرية » إلى « قبطية »؟!..

مع أن في الجزائر البريطانية كثيرًا من الكاثوليك، ولا تسمح الحكومة لهم بأن يلقنوا مذهبهم في مدارسها، بل المذهب الذي يدرس فيها هو مذهب البروتستانت الذي عليه ملك الإنجليز وأكثر الشعب الإنكليزي، فهل تسمح هذه الحكومة الحرة بأن يدرَّس في مدارسها دين اليهود من رعاياها وهي لا تسمح بتدريس مذهب الكاثوليك من مدارس دينها؟!.

ولا نشرح ما يُشترَط على ملك الإنكليز أن يقوله عند تتويجه من الطعن في الكاثوليكية والبراءة منها، ولا مع

الحكومة الإنكليزية الكاثوليك من إظهار بعض شعائر مذهبهم في عيد الفصح أو غيره، وقس على ذلك سائر دول أوربا..

لقد اشتهرت مصر بأنها بلاد العجائب، وحق لها أن تشتهر بذلك، فمسلموها يقفون أرضيهم حتى على أديار القبط، وينفقون من ريع أوقافهم الخاصة على تعليم القبط، وحكومتهم تسمح للقبط أن يعلموا دينهم في مدارسها، وهو ما لا نظير له في الحكومات الأوربية التي تقتدي بها.

والقبط تشكو من ظلمهم، وتستغيث بأوربا منهم، وتُدِلُّ عليهم بسببها، وتدعي أنها صاحبة البلاد، وأنها أحذر بحكمها.

وفي هذه البلاد معاهد تديرها الحكومة، وينفق عليها من أوقاف المسلمين المحبوسة على تعليم أولادهم خاصة، والحكومة تقبل في هذه المعاهد أولاد القبط فتعلمهم على نفقة المسلمين مخالفة بذلك شرط الواقف لأجلهم. فهل تسمح القبط بإنفاق قرش واحد من أوقافها على تعليم مسلم؟!

إن أمر المسلمين في تسامحهم مع القبط وترجيحهم لهم على أنفسهم - لأمر غريب لم يعهد له نظير في الأرض:

وقف الخديوي الأسبق إسماعيل باشا واحدًا وعشرين ألف فدان على تعليم أولاد المسلمين، وهي الأرض التي تسمى « تفتيش الوادي » ووقف جده - (محمد علي) - من قبله ثلاثة آلاف فدان على تعليم أولاد القبط، فكان عطاؤه للقبط

أكثر؛ لأنهم لا يبلغون ($\frac{١}{٨}$) المسلمين فاستأثرت القبط بما وُقف عليها، وشاركت المسلمين فيما وُقف عليهم، ثم ترفع جرائدهم **عقيرتها مستغيثة بأوربا المسيحية من ظلم المسلمين لهم في التعليم!**

ومن هذا القبيل مساعدة أوقاف المسلمين للجامعة المصرية بخمسة آلاف جنيه في كل سنة، وهي مفتّحة الأبواب للقبط وغيرهم، وطلبتها من غير المسلمين لا يقل عددهم عن المسلمين.

لقد علمنا بالقياس المطرد المنعكس:

أن القبط – وهم شرذمة قليلة: من خمسة إلى ستة في المائة من السكان – والذين يملكون (٣٠٪) من ثروة البلاد – لا يأخذون شيئًا إلا ويطلبون ما بعده، فلا يجاب طلب إلا ويعقبه طلب، ولا ينتهي أرب إلا إلى أرب، ولا يقنع هذه الفئة القليلة العدد، الكثيرة النشاط، الكبيرة الطمع، إلا أن يكون الحكم والنفوذ في هذه البلاد خالصًا لهم من دون المسلمين »[(١)]!

• • •

هكذا واجه الشيخ محمد رشيد رضا تحدي الطائفية القبطية، التي تريد تجريد مصر من هويتها العربية الإسلامية.. والانتقال بها من الإسلامية إلى المصرية إلى القبطية.. وهكذا

(١) رشيد رضا المنار (١٤/٢/١٠٨ - ١١٤، ١٥٩، ١٦٠) في (٣٠ صفر سنة ١٣٢٩هـ/أول مارس سنة ١٩١١م)، (١٤/٣/ ٢٠٢ - ٢٢٦) في (٢٩ ربيع الأول سنة ١٣٢٩هـ/٣٠ مارس سنة ١٩١١م).

كانت له - عليه رحمة الله - الريادة في مواجهة هذا التحدي - **الذي لا تزال معالمه تظهر في المنعطفات!**.. كما واجه تحديات العلمانية.. والصهيونية.. بينما كانت التيارات الفكرية الأخرى غافلة عن إدراك مخاطر هذه التحديات.. فكان - عليه رحمة الله - شهادة على الوعي الإسلامي الذي لم تغبشه غمامات التغريب!.

* * *
* *
*

المصادر والمراجع

- **الأفغاني – جمال الدين**: الأعمال الكاملة دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة – طبعة القاهرة سنة (١٩٦٨م)
- **الجبرتي**: عجائب الآثار، طبعة القاهرة، سنة (١٩٦٥م).
- **د. سهام نصار**: اليهود المصريون بين المصرية والصهيونية، طبعة بيروت سنة (١٩٨٠م).
- **عبد الله النديم**: مجلة الأستاذ.
- **د. عواطف عبد الرحمن**: الصحافة الصهيونية في مصر (١٨٩٧–١٩٥٤م) طبعة القاهرة، سنة (١٩٨٠م).
- **محمد البشير الإبراهيمي**: آثار الإمام البشير الإبراهيمي جمع وتقديم: د. أحمد طالب الإبراهيمي، طبعة بيروت، سنة (١٩٩٧م).
- **محمد رشيد رضا**: تاريخ الأستاذ الإمام، طبعة القاهرة، سنة (١٩٣١م).
- ....: المنار.
- ....: تفسير المنار، طبعة بيروت.
- **محمد عبده – الأستاذ الإمام**: الأعمال الكاملة، دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة، طبعة دار الشروق، القاهرة سنة (١٩٩٣م) وسنة (٢٠٠٦م).
- **د. محمد عمارة**: في فقه الصراع على القدس وفلسطين، طبعة القاهرة، سنة (٢٠٠٥م).

• • •

الكتاب في سطور

لقد واجه الإسلام ويواجه أعداءً اجتهدوا في كل عصر في محاولة محوه أو إضعافه؛ منهم من حاول إفساد العقائد بالتأويل، ومنهم من كذب على رسول الله ﷺ بوضع الأحاديث، ومنهم من سهل للملوك طريق الاستبداد، ومنهم ... ومنهم ... إلا أن الله تعالى قيد لهذا الدين جنودًا دافعوا عنه وكانوا حائط صدٍّ في مواجهة الهجمات المتتالية من أعدائه؛ من هؤلاء الشيخ رشيد رضا الذي رفع منار الإحياء والتجديد وخاض معارك وحروبًا في سبيل الدفاع عن ثوابت الدين؛ فكانت أولى معاركه ضد العلمانية ودعوة فصل الدين عن الدولة، كما تألق وعيه السياسي الإسلامي إزاء الخطر الصهيوني على الشرق العربي والإسلامي وكان له شرف التعبير عن هذا الوعي بحقائق هذه الغزوة والحلف غير المقدس الذي عقده الغرب مع الصهاينة ضد الإسلام والمسلمين، كما واجه الشيخ رضا تحدي الطائفية التي تريد تجريد مصر من هويتها العربية الإسلامية على حين غفلة من التيارات الفكرية الأخرى .. فكان رحمه الله شهادة على الوعي الإسلامي الذي لم تغبشه غيامات التغريب.

الناشر



القاهرة - مصر - ١٢٠ شارع الأزهر - ص. ب ١٦١ الغورية
هاتف: ٢٢٧٠٤٢٨٠ - ٢٢٧٤١٥٧٨ - ٢٥٩٣٢٨٢٠ - ٢٥٠٥٦٦٢٣
فاكس: ٢٢٧٤١٧٥٠ (٠٢٠٢)
الإسكندرية - هاتف: ٥٩٣٢٢٠٥ فاكس: ٥٩٣٢٢٠٤ (٠٢٠٣)
www.dar-alsalam.com info@dar-alsalam.com

